

قضايا تاريخية

من عالم العصور الوسطى

تأليف

د / علاء طه رزق حسين

كلية الآداب - دمياط
جامعة المنصورة

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م



قضايا تاريخية من عالم العصور الوسطى

تأليف

د. علاء طه رزق حسين

كلية الآداب - دمياط

جامعة المنصورة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

مكتبة نانسي دمياط

هاتف : ٢٤٠٨٥٥٣ - ٢٤٠٨٥٥٤ - ٣٣٣٦٩

فاكس : ٠٥٧/٤٠٣٧٥٥

محمول : ٠١٢٧٥١٠١٠٦ - ٠١٤٢٠٢٤٥٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حسين، علاء طه رزق.

قضايا تاريخية من عالم العصور الوسطى

/ تأليف علاء طه رزق حسين

ط ١ - دمياط : مكتبة نانسي، ٢٠١٠.

٢٠٤ ص؛ ٢٤ سم

تدمك : ٢٩٣ ٠ ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٤

١ - العصور الوسطى - تاريخ.

٢ - العالم - تاريخ.

٩٠٩,٠٨

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢١١٦

إهداء

إلى

روح مواطن مصري شريف اسمه كمال طه

مقدمة

لاشك أن عالم العصور الوسطى - تاريخاً وحضارة - يتسع لكثير من الأبحاث والدراسات لكثير من المتخصصين في دراسة تلك الحقبة التاريخية الطويلة الممتدة من زمن اضمحلال الإمبراطورية الرومانية إلى زمن النهضة الأوربية أي من سنة ٣٠٠ - ١٥٠٠م تقريباً وهي حقبة تعادل ما يزيد عن ضعف الفترة الممتدة من عصر النهضة إلى عصرنا الحالي والتي اصطلح على تسميتها بتاريخ أوربا في العصور الوسطى ، وهي تسمية غير دقيقة إذا علمنا أن عالم العصور الوسطى كان يضم في محيطه ثلاث دوائر متعددة الثقافات وهي الدائرة الأوربية ، والدائرة البيزنطية ثم الدائرة العربية الإسلامية .

وعلى الرغم من أن مجمل البحوث والدراسات في مجال تاريخ العصور الوسطى يوحى بأن هذه الحقبة التاريخية الطويلة قد استوفت حظها من البحث والدراسة يشهد بذلك هذا الكم الهائل من المصادر والمراجع التاريخية والأدبية التي تزخر بها المكتبات الورقية والالكترونية في الشرق والغرب سواء - فإن الحقيقة تظل ثابتة في أن كثيراً من هذه البحوث والدراسات - في الجامعات العربية - تعاملت مع عالم العصور الوسطى من خلال الدائرة الأوربية باعتبارها المصدر الرئيس للكتابات التاريخية منذ أن خط الكاتب الإنجليزي إدوارد جيبون Edward Gibbon بيده الأحرف الأولى من كتابه الشهير اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية The Decline and Fall of the Romen Empire في خريف سنة ١٧٦٤م ، وحتى قام الكاتب الأمريكي نورمان كانتور Norman Cantor بتأليف كتابه الموضوعي الشامل ؛ التاريخ الوسيط - قصة حضارة . البداية والنهاية Medieval History, The life and death of a Civilization

ولذا فإن هذا الكتاب يطرح فى فصوله الستة عدداً من القضايا التاريخية التى تلتقى فيها الدوائر الثلاث - الأوربية - البيزنطية - العربية الإسلامية وتتداخل مع بعضها البعض فى إطار عملية الصراع بين الغرب اللاتينى "الطامع" والشرق البيزنطى "المارق" والشرق الإسلامى "المُستباح" لتشكل فى النهاية عالماً مليئاً بالأحداث التاريخية اللامتناهية والاتجازات الحضارية المبهرة التى تزخر بها المصادر العربية والأجنبية بشتى أنواعها التاريخية ، والأدبية والدينية ، والجغرافية ، والفلسفية .

وهذا الكتاب الذى يتكون من ستة فصول أو ست قضايا تتصل بعالم العصور الوسطى نستهلها فى الفصل الأول بقضية : " الصليب فى زمن قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) بين التوصيف الدينى والتوظيف السياسى ، وهى تتناول عملية التأسيس المعنوى والمادى للصليب فى العالم الإنسانى المسيحى فى الغرب الأوربى فى القرن الرابع الميلادى بعد أن فشل زعماء الكنيسة فى القضاء على صحوة الوثنية فتطلعوا إلى الأباطرة الرومان كى يساعدهم على تحقيق هذا الهدف ويشدوا أزرهم فى الصعود بالكنيسة إلى الدرجات العليا ، وكان قسطنطين أول إمبراطور يعلن زواجه السياسى بالكنيسة اللاتينية حيث ولى وجهه شطر "الصليب" عسى أن يجد مبتغاه وما يطمع إليه من مكاسب سياسية وعسكرية .

أما الفصل الثانى ، فيتناول قضية: الفكر العقيدى للإمبراطور جوليان بين الشك واليقين - حيث أشاعت الكتابات الكنسية قصة ارتداده عن المسيحية التى نرى أنه لم يعتنقها أساساً كى يكون مرتداً ! وإنما هو ارتد فى حقيقة الأمر عن سياسة سلفه - قسطنطين - تجاه الكنيسة متأثراً فى ذلك بثقافته الكلاسيكية ورغبته فى إعادة وتجديد العبادات الأولى بنوع من الاجتهاد الفكرى الذى يختلط فيه "نتاج العقل" مع "نتاج الروح" مما أثار حفيظة زعماء الكنيسة ضده

بعد أن صارت الفلسفة اليونانية والأدب الروماني أقرب إلى عقله من المسيحية الوليدة بطقوسها الغامضة .

أما الفصل الثالث قضية : تحت عنوان : مرسوم الإملاء البابوي

(١٠٧٥ م) وخطبة مجمع كليرمون (١٠٩٥ م) - دعوة لحرب صليبية عالمية .

وهي قضية محددة تتناول طبيعة العلاقة بين مرسوم الإملاء البابوي (جريجوري السابع) وخطبة مجمع كليرمون (أربان الثاني) من خلال قراءة النص لكلاهما حيث سعيًا إلى زعامة العالم من خلال وحدة الكنيسة الكاثوليكية (العالمية) ومن ثم كان الصراع المحتدم بينهما وبين الطبقة العثمانية الملوك - الأمراء والنبلاء) وتوظيف هذا الصراع للدعوة لحرب صليبية بدأت في الغرب ثم اتجهت إلى الشرق الإسلامي في ضوء ما ورد في خطبة مجمع كليرمون في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م .

والقضية لا تتصل بدراسة دوافع الحركة الصليبية في مفهومها الشمولي وإنما تتصل بالدعوة الدينية الكاثوليكية التي تحولت منذ مرسوم الإملاء البابوي وحتى خطبة مجمع كليرمون إلى " دعوة عسكرية " عرفت خطأ باسم الحروب الصليبية .

أما الفصل الرابع : حتمية الوحدة بين مصر والشام في ضوء أحداث

الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط ٥٦٤ - ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م فيتناول قضية من أهم القضايا في تاريخ الشرق العربي / الإسلامي ألا وهي وحدة مصر (جبهة الجنوب) والشام (جبهة الشمال) وضرورة هذه الوحدة على مر العصور في مواجهة كافة الحملات والغزوات العسكرية الوافدة من الغرب ، وهي الحقيقة الثابتة التي أدركها صلاح الدين الأيوبي ضمن الحملات الثلاث التي أرسلها أستاذه نور الدين محمود في مواجهة الحملات الصليبية القادمة من مملكة بيت المقدس اللاتينية حيث تعلم من سير الأحداث للحملة الصليبية / البيزنطية أن " مصر " هي الهدف الرئيس للصراع ، ومن ثم لابد أن يكون لها الدور الريادي في إدارة

دفة هذا الصراع من خلال الوحدة بين جبهتي الجنوب والشمال وإلا أصبحت المنطقة الجغرافية الواقعة بين النيل والفرات مسرحاً لمسلسل النهب والاستغلال من جانب القوات الصليبية وغيرها من القوى المعادية المتحالفة معها .

ويأتى الفصل قبل الأخير ليعالج قضية : خصوصية مصر فى النظرية السياسية لحكم خلفاء صلاح الدين الأيوبي فى ضوء أحداث الحروب الصليبية وهى تناقش خصوصية مصر الثابتة عبر عصور التاريخ والتي لم يحسن خلفاء صلاح الدين توظيفها فى مواجهة القوى الصليبية ، بل على العكس فقد وظفوا هذه الخصوصية لمصر - بموقعها ومواردها البشرية والطبيعية - فى الاتجاه المعاكس الذى يخدم مصالح الصليبيين ، وبدلاً من أن تكون مصر عاصمة أكبر وأقوى دولة فى العالم - زمن صلاح الدين - محوراً رئيساً لاستكمال مسيرة الجهاد الإسلامى وتحرير باقى المستوطنات الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام نجد هؤلاء الخلفاء قد أضاعوا هذا الميراث التاريخى العظيم وحولوا مصر إلى بؤرة للصراع الداخلى فيما بينهم من أجل عيون السلطة والثروة مما أضاع هذا الميراث أدراج رياح التشتت ، والفرقة ، والطمع .

أما الفصل السادس والأخير فيتناول قضية " الخيانة الحاكمة زمن الغزو التتارى للعراق والشام " وهذه القضية لا تبحث فى أحداث الغزو التتارى (المغولى) للشرق العربى /الإسلامى ، وإنما تبحث فى قضية محددة وهى خيانة أهل الدولة لله والوطن ، وكيف تسببت هذه الجريمة العظمى فى سقوط النظام السياسى الإسلامى فى بغداد (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ومقتل آخر الخلفاء العباسيين (المستعصم) ، وتدمير ونهب الموارد والثروات فى المدن العراقية والشامية بينما قاومت الشعوب العربية المغلوبة على أمرها هذا الغزو بالصراخ ، والبكاء والعويل ، والدعاء على هؤلاء الخونة !

كذلك تناقش دور " مصر " فى مواجهة هذا الغزو التتري
(٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) والتصدى بحزم لكل أرباب الخيانة الذين هاتت عليهم
أوطانهم فباعوها بثمن بخس لى " يثبتوا على ما هم فيه " من السلطة والثروة .
على قول أحد المؤرخين المعاصرين .

..... وبعد ،

فإن هذه القضايا التى نعرض لها فى فصول هذا الكتاب تعبر عن رؤية
الباحث لما ورد فى المصادر التاريخية من حقائق التاريخ والتى تبدو أهميتها
فى كونها خطوطاً حمراء يستحى كثير من المؤرخين الأقدمين والمحدثين أن يقتربوا
منها أو أن يبرزوها فى ثنايا الأحداث التى تزخر بها تلك المصادر بالرغم من أهمية
هذه الحقائق لأى باحث يرغب فى فهم حركة التاريخ الإنسانى بطريقة منهجية صحيحة
خاصة أن هذه القضايا تتصل بالفترات والمراحل الانتقالية الحاسمة فى تاريخ
الشعوب ، والتى يعقبها تغييرات جذرية فى مختلف مناحى الحياة السياسية
والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والعقيدية وهو ما نحاول أن نناقشه
من خلال تلك القضايا الحيوية عسى أن يكون فيها قدر من الإفادة لجمهور الباحثين
والدارسين والقراء .

والله من وراء القصد

د/ علاء طه

حدائق القبة - القاهرة

٢١ ربيع الأول ١٤٣١ هـ

٧ مارس ٢٠١٠ م

الصليب في زمن قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م)

” بين التوصيف الديني والتوظيف السياسي ”

مقدمة:

تمثل قصة السيد المسيح عليه السلام من الميلاد إلى الوفاة (٣٤هـ) نوعاً من الإعجاز الإلهي المطلق في مواجهة الفكر البشري المحدود مما دعا البعض وأولهم اليهود إلى تفسير آيات الإعجاز تلك في إطار تأمري يثير الشك والريبة في كل ما أحيط بمولده من أحادي اختلط فيها الواقع بالأسطورة ، والحقيقة بالخرافة إلى حد أن الخطاب الديني اليهودي عن المسيحية "مسيحيوت" امتزج بالخطاب السياسي الصهيوني في محاولة لإظهار صورة المسيح في نصوص العهد القديم باعتباره البطل اليهودي "المخلص" الذي يخرجهم من ظلمة العبودية والشتات إلى نور الحرية والاستقرار في حياتهم الدنيا.

وقد اهتمت المصادر الدينية - عامة - بقصة ميلاد المسيح ، وأسهب في ذكر آيات التكريم والإجلال لمولده من رحم أمه مريم العذراء لتظل هذه القصة مثار جدل بين أهل الزيغ من الذين كفروا بآيات الله وبين أهل التقوى من الذين آمنوا بقدرة الخالق الأعظم على تدبير شئون هذا الكون كيفما شاء بكلمة منه دون أن يمسه تعب أو لغوب.

ففي القرآن الكريم: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" ، "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" ، "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكن بغياً قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً"^(١).

(١) آل عمران: ٤٢-٥٩ ، مريم: ٢٠-٢١ ، ١٦-٣٥ .

وفي الكتاب المقدس: "ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذ ملك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس. فستد ابناً وتدعو اسمه يسوع".
"كما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس".

كذلك اهتمت المصادر الدينية المسيحية بمسألة "الصلب" باعتبارها الخلفية الأيديولوجية للعقيدة عند جمهور النصارى ، إذ من المعروف أن قصة صلب المسيح - في الكتاب المقدس - لا تعد من الروايات الطويلة في تاريخ الرسل والأنبياء إلا أنها فاقت سائر القصص في غرابتها وغموضها وبخاصة في الفصل الأخير المتعلق بالصلب ذاته والذي ارتبط في المحتوى العقيدي للمسيحيين بفكرة "الخلاص" التي تتركز حول محورين رئيسين هما: الخطية الأولى ، والفداء "الصلب" إذ يرى معظم اللاهوتيين المسيحيين أن خطية آدم - كما ورد في الكتاب المقدس - قد سرت في نماء بنيهِ ، وصار جميع البشر منذ أن عصى آدم ربه وهبوطه بأمر الله - هو وزوجته - على الأرض وحتى قيام الساعة خطاة عصاة يستحقون أشد العقاب وهو الموت. "... ، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها ، ...".

ويرون أن "الموت" حق على كل إنسان نتيجة هذا الفساد البشري الموروث إذ أبى هذا الإنسان إلا أن يكون عاصياً بعد أن كان طائعاً في جنة الخلد وهذا هو "العدل" الإلهي الذي تزامن مع "الرحمة" الإلهية من خلال فكرة "الخلاص" لهذا الإنسان من عذاب الآخرة المقيم ، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق "الفداء" أو "الصلب" ، ... وهكذا تم إهراق دم السيد المسيح على الصليب كي تتحقق صحة المعادلة الإلهية ... ، ومن يصلح لها سوى المسيح؟ "... ، لأن النبيحة

يجب أن تكون ظاهرة لا عيب فيها ، وأن تكون ثمينة ، وأن تكون من نوع الإنسان وأن تكون لها وجاهة عند الله".

... هذا مفهوم الصليب. فماذا عن "الصليب" من حيث توصيفه الديني وتوظيفه السياسي كما جاء في كتابات المؤرخين والرحالة المسيحيين ، وإن كانت هذه الدراسة في جانبها التاريخي تتحدد زمنياً بفترة حكم الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول (٣٠٦ - ٣٣٧م) وهي الفترة التي تبدو أهميتها في عدة أمور: أولها ، أنها الفترة التي شهدت تحولاً جوهرياً في التاريخ الإنساني بالانتقال من العالم القديم الوثني إلى العالم الوسيط المسيحي، وثانيها ، أن قسطنطين هو أول إمبراطور روماني وثني يعترف اعترافاً رسمياً بالديانة المسيحية في وقت عانى فيه سكان الإمبراطورية حالة من الفراغ الديني والجذب العقيدي دفعتهم إلى الاتجاه شطر الأديان الوضعية الوافدة من الشرق مثل ديانة "إيزيس" المصرية و "متراس" الفارسية ، و "سيبيل" في آسيا الصغرى.

أما الأمر الثالث والأهم في هذه الفترة الزمنية فهو أن الإمبراطور الروماني قسطنطين بعد انتصاره على خصمه ماكسنتيوس Maxentius في معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge بإيطاليا سنة ٣١٢ أعلن على الملأ - وكان مؤرخه ايزبيوس حاضراً - أن السبب الرئيس في تحقيق هذا النصر المبين هو "الصليب"! كيف؟ هذا ما سوف تتناوله هذه الدراسة من خلال روايات المؤرخين والرحالة والكتاب المسيحيين في العصور الوسطى ، والتي حاولوا من خلالها تأكيد قدرة قسطنطين على الجمع بين زعامته السياسية ، وزعامته الدينية للعالم الروماني بعد رؤيته للسيد المسيح في منامه الذي شاهد فيه الصليب يتلألأ في سماء الملكوت العلوي ، وتحتة عبارة "بهذا سوف تنتصر" Tou Tw Vika.

وهذه الفترة الزمنية - زمن قسطنطين - شهدت عملية التأصيل المعنوي والمادي لأهمية "الصليب" في العالم الإنساني المسيحي في العصور الوسطى وبداية العلاقة الوطيدة بين الدولة الوثنية والكنيسة في أوائل القرن الرابع تلك العلاقة التي وضع قواعدها الإمبراطور الروماني الذي وُلد وعاش وثنياً ومات مسيحياً أريوسياً ، ومع هذا كانت قصته - ولم تزل - مع الصليب جديرة بالبحث والدراسة.

وُلد قُسطنطين Constantine the Great سنة ٢٧٤ من أبوين هما ،
قُسطنطيوس خلوروس Cholorus Constantius الذي كان يعتنق الديانة
الوثنية ، ويشغل منصب قيصر في الامبراطورية الرومانية الغربية ، وهيلينا
Helena التي صارت فيما بعد القديسة هيلانة Saint Helana ، وهي التي
أرسلها قُسطنطين إلى بيت المقدس حيث عثرت على الصليب الحقيقي الذي صلب
عليه السيد المسيح مثلما هو شائع بين جمهور الباحثين.

وحين اعتزل دقلديانوس الحكم سنة ٣٠٦م نشبت حرب أهلية استمرت
حتى سنة ٣١٠م حيث كان هناك ثلاثة أباطرة يتصارعون على السلطة هم: ليكينوس
Lecinius في الشرق ، ومكسنتيوس Maxentius في إيطاليا ، وقُسطنطين
Costantine في غاليا وبريطانيا اللتين كانتا أفقر أجزاء الامبراطورية وأقلها
في عدد السكان ، ولم يتجاوز عدد المسيحيين بها ١٠/١ من مجموع شعوب العالم
الروماني.

وفي سنة ٣١٢م انتصر قُسطنطين على خصمه في الغرب مكسنتيوس
في معركة القنطرة الملفية Milivan Bridge بالقرب من روما ليصبح إمبراطوراً
على النصف الغربي للإمبراطورية ، وفي هذه السنة أعلن قُسطنطين على لسان
متحدثه الرسمي أنه صلى للرب المسيحي قبيل المعركة ، وأنه تلقى تعظيماً أثناء
عبوره جبال الألب لملاقاة خصمه مكسنتيوس بأن يضع شارة الصليب على دروع
جنوده كي تجلب له النصر ، بل إن المتحدث الرسمي إيوزبيوس Eusebius
والمؤرخ اللاتيني لاكتانتوس Lactantius يؤكدان أن قُسطنطين رأى المسيح
في منامه الذي أخبره بأنه سوف ينتصر إن هو آمن به ، وأنه - أي قُسطنطين - شاهد
هو وجنوده - صليباً يتلألأ في السماء وتحتة عبارة بأحرف من نور تقول

"بهذه الشارة سوف تنتصر" مما أشاع الحماس في صفوف الجنود ليحققوا هذا النصر المؤزر بقوة هذا الصليب.

"وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذي يرى ، وذهبت به الظنون كل مذهب. وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التي رآها بيميناه "الصليب" يأمره أن يتخذ إياها له شعاراً ، وأن يجعل منها حارساً أميناً في كل معاركه الآتية".

وبالفعل سارع قسطنطين باستدعاء أرباب الحرف والصنائع وأمرهم أن يصنعوها بدقة كما رآها وأوصاهم أن تكون من الذهب والأحجار الكريمة لتوضع على رأس كل جندي من جيشه. مع أن أحداً من هؤلاء الجنود لم ير شيئاً من تلك الرواية التي نكرها هذان المؤرخان.

ويبدو أن هذه الروايات الوصفية التي طرحها المؤرخون المعاصرون من أمثال لاكتانتوس وايزوبيوس لم تلق قبولاً يقينياً من المؤرخين والباحثين المحدثين خاصة أن هذه الروايات كتبت - غالباً - في زمن قسطنطين أو بعد وفاته مباشرة مما يعكس الحالة الوجدانية التي سيطرت على أقلام هؤلاء المؤرخين في مرحلة شهدت تحولاً جوهرياً في تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان من أهم معالمها اعتراف قسطنطين بالمسيحية ليصبح الإمبراطور مفوضاً من المسيح في إدارة شئون العالم الأرضي ، وهي النظرية التي فرضت نفسها فيما بعد على مسرح الحياة السياسية وعُرفت بالبابوية - القيصرية - **Caesaro Papism** والتي تُنادي بأن الإمبراطور هو نائب الله على الأرض.

ومن الأدلة الأثرية التي تجعل هذه الروايات التاريخية محل جدل بين جمهور الباحثين ، تلك العملات المعدنية التي سُكت في زمن قسطنطين - بعد اعترافه بالمسيحية - وتحمل صورة إله الشمس التي لا تقهر ، وصورة الصليب في آن واحد

أو تلك العملات التي تصور شارة المسيح تدمر إحدى الحيات رامزة إلى نهاية الوثنية ، بينما في إحدى القطع الأخرى يبدو قسطنطين في زيهِ العسكري والشارة المسيحية (الصليب) تطلو خوذته ، ثم هناك ميدالية تعود إلى سنة ٣٣٠ م ذات خصائص رومانية وثنية توضح الإلهة فيكتوريا (رب النصر عند الرومان) وهي تضع التاج بيديها على رأس الإمبراطور قسطنطين.

ويرى بعض الباحثين أن قسطنطين رغم إخلاصه وتعاطفه مع الديانة المسيحية فإنه لم يكن واعياً بأهمية التعبير عن هذا الإخلاص بطريقة صحيحة على عملاته خاصة أن طرز العملة الرومانية كانت تتغير سنوياً الأمر الذي دعا أحد الباحثين - منهم - يصفه بأنه كان "نصف متعلم يخلط بين الديانات وبعضها" بل اعتبره "رجلاً مخبولاً". بينما يرى غيره أنه كان "ميكافيللي" يعي جيداً ما يريد في مجال السياسة والحرب حتى وإن راهن على "الصليب" شعاراً لتحقيق النصر.

أما المؤرخ جونز فيري أن قسطنطين رأى في منامه ظاهرة كونية نادرة أشبه بقوس قزح (Rain-Bow) نتيجة سقوط كرات الثلج خلال أشعة الشمس التي هي معبوده ، وبدأت الصورة أمامه وكأن الشمس تعانق الصليب ولأن المسيح هو "سيد الصليب" فقد أراد أن يحقق سيادته على هذا الكون من خلال رؤية خيالية ترضي أهواء المسيحيين ، ومن ثم تحول "الصليب المعنوي" إلى صليب مادي يضعه الجنود على دروعهم أثناء القتال.

ومن المعروف أن قسطنطين عندما اختار يوم الأحد عيداً أسبوعياً في الإمبراطورية الرومانية أطلق عليه يوم الشمس ولما اختار "الصليب" بعد ذلك شعاراً لجنوده كان يعلم أن غالبية هؤلاء الجنود وثنيون ولم يتحولوا إلى المسيحية بعد ، فجاء صليبه في صورة ترضي أهواء الوثنيين كذلك حيث ضم الحرفين الأولين من اسم المسيح في اليونانية وهما: "الخي X" و "الرو P." أي خريستوس

Christos وبذلك تألف حول هذا الشعار المسيحي جموع المتدينين من أتباع الصليب وأتباع الشمس في آن واحد.

ولعل المؤرخ بيورانت كان محقاً - إلى حد كبير - في رؤيته لتحول قسطنطين إلى المسيحية في هذه الفترة الحرجة من القرن الرابع والتي كانت فيه الكنيسة الغربية أشبه بغريق في بحر لجي ، وكان قسطنطين - منقذها - يمكث في مكان غير بعيد منصتاً لصوت استغاثتها ، ومتصتاً على دوافع سادتها للتحالف معه.

يقول المؤرخ: "هل كان قسطنطين حين تحول إلى المسيحية مخلصاً في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية أم حكمة سياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الخير هو الصواب ، لقد أحاط قسطنطين نفسه في بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين. ولما كان بعد تحوله إلى الدين الجديد (المسيحية) يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس".

وجدير بالذكر أن قسطنطين لم ينل قدراً كبيراً من التعليم والثقافة ، ولم يكن ملماً بطقوس الديانة المسيحية في الغرب الأوربي حتى أنه لم يتلق طقس المعمودية إلا على فراش الموت على يد أسقف أريوسي ، ومع هذا فإنه تصرف في الأمور الدينية باعتباره "أسقف" يدل على ذلك رئاسته لأول المجامع المسكونية (مجمع نيقية) في سنة ٣٢٥م، وفرضه لنظرية مذهبية تخضع لها كل الفرق المسيحية في محاولة سياسية منه للتوفيق بين المذاهب الدينية خاصة بعد شروعه في تأسيس عاصمة جديدة للإمبراطورية على ضفاف البسفور (القسطنطينية) كبديل لروما القديمة على ضفاف التير.

ولقد كان أيوزبيوس حريصاً على تصوير كافة الانجازات التي قام بها قسطنطين بدءاً من النصر الذي حققه سنة ٣١٢م واعترافه بالمسيحية في سنة ٣١٣م ، ومروراً بمجمع نيقية سنة ٣٢٥م وانتهاءً بتدشين العاصمة

الجديدة في سنة ٣٣٠م في إطار الرؤى والأحلام المقدسة التي يتلقى فيها التعليمات من المسيح الرب وهو يحمل الصليب المقدس الذي يذل له الصعوبات ، ويحقق له المعجزات مما جعل قسطنطين يرى الصليب رمزاً دينياً لصفقة سياسية رابحة ومضمونة العواقب. ومن ثم بذل جهوداً مضنية في سبيل لحفاظ على وحدة الكنيسة باعتبارها حجر الزاوية في امتداد عمر الإمبراطورية الرومانية.

وعلى هذا فإن قسطنطين في ضوء رؤيته البدائية للديانة المسيحية لم يشغل فكره السياسي بالنظريات الفلسفية عن المسيحية في النصف الشرقي للإمبراطورية ساعده على ذلك الطابع الريفي للتدين بين سكان النصف الغربي ، وخلو العالم اللاتيني من المذاهب المسيحية العقلية ، والمصطلحات المنطقية المعقدة التي سادت في الشرق المسيحي حول طبيعة السيد المسيح ، وأدت إلى كثير من المنازعات المذهبية التي مهدت لانفصال ديني حاسم بين الشرق "العقلاني" والغرب "العاطفي" الذي ظل يحتضن الصليب في أحلام المنام واليقظة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

ويتفق كثير من الباحثين الأوروبيين على فطنة قسطنطين السياسية ونجاحه في توظيف الشعار المسيحي والعاطفة الدينية في تحقيق أهدافه وتأسيس عرى الصداقة بين الدولة الوثنية والكنيسة المسيحية في القرن الرابع الميلادي.

والرأي - عندنا - أن قسطنطين لم يكن جاهلاً أو مشوشاً أو مخبولاً مثلما حاول كثير من الباحثين الأوروبيين أن يصوره ، وإنما كان ذا حكمة سياسية وخبرة إدارية منذ أن انفرد بحكم العالم الروماني الغربي غداة انتصاره على خصمه مكسنتيوس سنة ٣١٢م في معركة القنطرة الملقية ، واعترافه بالديانة المسيحية في سنة ٣١٣م من خلال مرسوم ميلانو ومروراً بإنجازاته وإصلاحاته المدنية والدينية لتحقيق وحدة الدولة والكنيسة ، وانتهاءً بوفاته في سنة ٣٣٧م وتناوله سر

المعمودية على فراش الموت بمعرفة أسقف أريوسي مما يعني أنه عاش كاهناً
ومت أسقفاً!

لم يكن قسطنطين عندما زعم أنه رأى الصليب متوهجاً وسط هالة من نور
الشمس غافلاً عن حقيقة أن نجم الوثنية إلى أقول ، وأن شمس الكهانة إلى مغيب
وأن "الصليب" الذي ادعى رؤيته إن هو إلا وحي يُوجي إليه بأن سلطان الكنيسة
قادم عما قريب ، وأن إنقاذ الدولة صار رهين تأييد الكنيسة له شكلاً وموضوعاً.
ومن ثم يمكن القول بأن تحول قسطنطين عن الوثنية في اتجاه المسيحية كان تحولاً
سياسياً عقيدياً يدل على ذلك أن اهتمامه الشديد بشعار المسيحية "الصليب" لم
يشغله قط عن عشقه لشعاره الوثني "الشمس" بل أنه كان حريصاً - بعد ذلك - على
التوفيق بين المذاهب المسيحية واتباع سياسة اللين والمهادنة مع عموم الأساقفة
دون أن يغمض عينيه لحظة واحدة عن نيافته الوثنية التي هي مصدر قوته وهيبته.
وفي الوقت الذي كانت فيه يدا قسطنطين مضرجتين بدماء ضحاياه
بما في ذلك زوجه وولده - وهو ما ينفي تدنيه - كان ينظر بعين الرحمة والعطف
إلى الكنيسة ، التي أغدق عليها من سابغ نعمه المادية والأدبية ، كما ورد
في "تاريخ إيوزبيوس عن الكنيسة" بل كان على استعداد لأن ينجز من أعمال البر
والتقوى كل ما من شأنه توطيد أواصر المودة مع الأساقفة وتوسيع دائرة سلطانه
في هذا العالم. حتى وإن اقتضى الأمر أن يرسل أمه هيلينا إلى القدس للبحث
عن الصليب في المكان الذي شهد صليب المسيح عليه السلام ويعرف باسم
"الجلجثة" أو "الجمجمة" كما ورد في تثنية أو "الجلجثة" كما ورد في كتابات
الرحالة المسيحيين، وقد نجحت هيلينا في إنجاز مهمتها المقدسة التي اهتمت لها
قلوب المسيحيين في أنحاء العالم المسيحي. لتكون جدير بلقب القديسة هيلانة
Saint-Helana مثلما صار قسطنطين جديراً بلقب "الحواري الثالث عشر"

في عداد الحواريين ، وبهذا تلاشت كل الذنوب والآثام التي اقترفها الابن وأمه وبوركت كل مجريات أعمالهم بفضل الصليب.

ويبدو أن قصة الصليب قد سيطرت على أذهان كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا القدس في بداية عصر الحروب الصليبية ، وكانوا مشوقين إلى مشاهدة الموضع الذي عثرت فيه هيلينا على الصليب الحقيقي بزعمهم.

والرحالة الألماني ثيودريش يصف لنا هذا الموضع بقوله: "نحو الكنيسة المبجلة للقديسة الإمبراطورية هيلانة ينزل المرء نحو ٣٠ درجة أو أكثر باتجاه الشرق من الكنيسة نفسها حيث يوجد هناك مذبح مقدس جداً مخصص لها. وهناك أيضاً ينزل المرء على اليد اليمنى خمس عشرة درجة أو أكثر إلى داخل مغارة تحت الأرض حيث يمكن أن يشاهد المرء على الزاوية اليمنى للمغارة مذبحاً مفتوحاً وتحت صليب مقطوع من الأرضية في البقعة التي يقال أن الإمبراطورة وجدت صليب السيد المسيح. وهناك يوجد مذبح مخصص للقديس جيمس James (يعقوب) ولا يوجد لهذه الكنيسة أية نافذة أخرى سوى الفتحة الموجودة في طابقها العلوي فقط.

أما كنيسة الضريح المقدس (القيامة) والتي شيدت بمعرفة هيلانة فإنها تضم بين ذخائرها صليباً مذهباً يعتقد أنه من أعمال الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠م) ، وتحت قاعدة الضريح نص مقدس مكتوب بحروف من الذهب عن نهاية السيد المسيح في الحياة الدنيا.

كذلك يصف لنا ثيودريش صورة المسيح في إحدى العمانر المقدس وتظهر معه أمه مريم العذراء ، وأيضاً يوحنا المعمدان وجبريل وتصور المسيح حاملاً الصليب بيده اليسرى وحاملاً آدم في يده اليمنى ، ينظر عالياً بنظرة ملوكية نحو السماء رافعاً قدمه اليسرى بخطوة واسعة بينما ما تزال قدمه اليمنى مثبتة

على الأرض على الرغم أنه يدخل الجنة بينما يقف الأتباع حوله ، وهم : أمه
والقديس يوحنا المعمدان وجميع الحواريين. ويوجد تحت قدمه درج يصل
عبر القوس من جدار إلى آخر ويشتمل هذا النقش على تلك الترانيم:

مُبارك المسيح الذي صُلب بدمه ولحمه

مبجل مسيحننا الذي قُتل من أجلنا

عظمّوه ، لقد انبعث من قبره

ولم ينس الإمبراطور الروماني "الوثني" وأمه هيلينا أن يكونا ضمن
المنظومة "المسيحية" باعتبارهما المؤسس الأول للكنيسة التي أنشئت على غرار
الكنيسة الموجودة في إكس لاشابل ، وتتميز "الروتندا" بصورة المسيح وأمه
والحواريين الاثنى عشر ، ثم صورة الحواري الثالث عشر قسطنطين الذي يجلس
"بعظمة ملوكية مرتدياً الثوب الروماني الرسمي القديم" كما تجلس القديسة
"هيلانة" بملابس ساحرة في مواجهة ابنها الإمبراطور.

ومن الملاحظ - هنا - أن الكتابات المدونة في هذه الكنيسة كتبت بأحرف
لاتينية ويونانية مما يؤكد حرص قسطنطين على الجمع بين الثقافتين الغربية
والشرقية وهو نفس حرصه على الجمع بين وثنية الأباطرة ، ومسيحية الرهبان
وكانه بذلك يريد أن يطوي صفحات ماضيه الأسود الملطخ بدماء منافسيه وضحاياه
ويسطر صفحات جديدة "مقدسة" تغفر له الخطايا والآثام ، ليكون جديراً بزعامته
لكل كنائس العالم الروماني ويلقب "الرسول الثالث عشر".

وفي تصورنا أن التوظيف السياسي للصليب كان بدعة سنّها قسطنطين
في القرن الرابع الميلادي بإيحاء من مستشاره الأسقف أيوزبيوس الذي كان يرسم
له أسلوب التعامل مع الكنيسة ليكون نموذجاً لحياة مثالية خالية من البربرية

والتوجس وغيرها من الصفات الدونية التي أتصف بها أباطرة العصور الوسطى عامة - ومن بينهم قسطنطين - لأن الأدب التاريخي في أوائل العصور الوسطى مثل سير القديسين Hagiography ارتبط في مفهومه ومغزاه بالتدوين التاريخي أو "التاريخ" Historiography من حيث تقديم "المثال" لا "الواقع" وهذا ما حرص عليه مؤرخ كنسي مثل إيوزبيوس من خلال قصة "الصليب" الذي ظهر في السماء ليراه الإمبراطور/ الكاهن بعد أن أخذته سيئة من النوم.

وهي فكرة تأثر بها الملوك والأباطرة في القرون التالية تعبيراً عن النصر والعزة والمجد وإن لم يتحقق لهم ذلك في الواقع على سبيل التعويض النفسي لما أصابهم من ويلات الحروب والمعارك وكسباً لتعاطف رعاياهم المسيحيين.

هكذا حاول إيوزبيوس - من خلال الشعار المسيحي - أن يجسد قسطنطين قديساً تقياً لا إمبراطوراً همجياً لكي تعشقه الكنيسة الباحثة عن الدعم الأدبي والمادي من جانب الأباطرة الرومان حتى وإن كان هذا الدعم عن عدم اقتناع منهم لأن الهدف مشترك بين الطرفين - الزمني والديني - وهو استمرارية المسيحية في ظل استمرارية الإمبراطورية وهو ما تحقق للسلطة الزمنية لمائة سنة تالية ولهذا كان "الصليب" بالنسبة لقسطنطين شعار التفاؤل ، ورهان الكسب المضمون في مجال الحرب والسلام لكي يدخل العالم الوسيط أعظم مرحلة من مراحل التحول التاريخي بهذا التزاوج الميمون بين الشعار الوثني والشعار المسيحي.

أما "دانيال الراهب" الذي زار القدس سنة ١١٠٦ - ١١٠٧ م ، فقد شاهد جميع الأماكن المقدسة المسيحية التي جاسها السيد المسيح بقدميه ، ووصفها لنا بحال من الرهبة والخشوع الزاندين إذ يقول:

"لقد شاهدت كل هذه الأماكن بعيني الأثمتين ، والله برحمته قدر لي أن أرى كل ذلك بعد أن أتناهني شوق عظيم لسنوات عديدة. إخواني ، آبائي ، أسيادي اغفروا لي خطاياي ،

اصفحوا عن جهلي وعن البساطة التي سوف أقدم بها وصفاً عن مدينة بيت المقدس الطاهرة وتلك الأرض المباركة".

وعندما يصل دانيال في رحلته المقدسة إلى جبل ترودوس Troodos يصف لنا مشهد الصليب الخشبي الذي عثرت عليه القديسة هيلانة - أم قسطنطين بقوله: "أقامته الإمبراطورة لطرد الأرواح الشريرة وعلاج جميع أنواع الأمراض ووضعت في هذا الصليب أحد مسامير المسيح المقدسة ، وقد تم كثير من الشعائر والمعجزات في هذه البقعة ، وهذا الصليب معلق في الهواء دون أن يكون متصلاً بالأرض إنها الروح المقدسة التي تبقى معلقاً في الفضاء".

وهنا نلاحظ التأثيرات الوجدانية للإجازات التي قامت بها هيلانة على الزائرين لهذا المكان المقدس وغيره ، وما توحى به في نفوس هؤلاء من ذكريات الصليب للسيد المسيح ، ومعجزاته ، وآلامه به في نفوس هؤلاء من سائر البشر، بحيث يصبح الصليب رمزاً لتضحيته ومقاومته من أجل سائر البشر والفساد في هذا العالم الدنيوي الآثم ، حتى أن الحاج الروسي دانيال يري أن عينيه الأثمتين شاهدت ما لا يستحق أن يراه في هذه الأماكن المقدسة وبخاصة هذا الصليب المعلق فوق جبل ترودوس بفلسطين.

"... ، وأنا غير الجدير مررت بهذا المكان".

ومن الملاحظ في الروايات الوصفية لدانيال الراهب أنه أضاف إليها من روايات أخرى مسموعة ليس لها أساس من الواقع ، ناهيك عما جاء في التوراة من روايات تأثر بها إلى حد كبير نذكر منها على سبيل المثال ما ورد في التوراة عن قصة "الذبح" وكيف حاول أخبار اليهود إسقاط الرواية على "اسحق" ابن إبراهيم من زوجه سارة عليهم السلام.

"فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معاً. وكلم اسحق إبراهيم آياه وقال يا أبي. فقال هاأنذا يا ابني. فقال هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم الله يري له الخروف للمحرقة يا ابني. فذهبا كلاهما معاً. فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح. وربط الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم فقال هاأنذا فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأنني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني، ...".

ومن المعروف أن قصة الذبح كانت في مكة ولم تكن في فلسطين كما جاء في التوراة ، وهو ما تأثر به دانيال في روايته التي خلط فيها بين "مذبح إبراهيم" والمكان الذي شهد - كما يعتقد - صلب المسيح. "ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت يقول الرب من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكبر نسلك كثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر ...، ثم رجع إبراهيم إلى غلامه فناموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع. وسكن إبراهيم في بئر سبع".

كما يصف "ثيودريش" كنيسة صغيرة مخصصة للصليب المقدس ، وهي تقع على مقربة من كنيسة القديسة مريم ، ويوجد بها جزء من الخشب المقدس الذي استخدم في عملية الصلب ، وفي مقابل هذه الكنيسة توجد كنيسة صغيرة ذات قدسية خاصة حيث خصص مذبح عظيم القدسية للصليب المقدس. وهذه القطعة مغطاة بالذهب والفضة والجواهر ، وعندما تتطلب الحاجة يحمل المسيحيون هذا الرمز المقدس ضد الوثنيين في المعركة وقد زينت هذه الكنيسة الصغيرة بالفسيفاء بطريقة رائعة ، وفي الجانب الشرقي قرب هذه الكنيسة يدخل المرء

إلى الكنيسة مظلمة عبر نحو عشرين درجة حيث يوجد مذبح عظيم القديسة ، وتحت الأرضية حيث يمكن رؤية علامة الصليب ، ويقال أن المسيح قد سجن في هذا المكان عندما كان ينتظر الصلب" وفي جانب آخر يلاحظ المرء صورة مرسومة للسيد المسيح وهو على "الصليب" وهي واقعة فوق باب الأديرة ، وحولها هذه الأبيات المنقوشة:

"أنت من يعبر هذا السيل

وأنت من تسبب في أحزاني

وقد عانيت ذلك لأجلك

فلأجلي أنت جنبي البلاء"

ويشير "دانيال الراهب" إلى إحدى الكنائس الصغيرة والتي كانت في الأصل كنيسة كبرى شيدها قسطنطين بالقرب من المكان الذي وجدت فيه هيلينا الصليب المقدس ، وهو المكان الذي جاءته مريم المصرية لتقبيل الصليب "ولكنها منعت من الدخول من قبل الروح الطاهرة ، وبعد التوسل إلى العذراء المقدسة التي كانت صورتها في الرواق استطاعت دخول الكنيسة وتقبيل الصليب المقدس ، ... ، وقرب هذا الباب هناك المكان الذي تعرفت فيه القديسة هيلانة على الصليب الحقيقي".

وهكذا نجح قسطنطين منذ اعتناقه المسيحية في التأسيس لفكرة قداسة الصليب وما يرتبط بهذه القداسة من معجزات حتى صار "الصليب" عنواناً مقدساً لكل الكنائس والأديرة والأبرشيات على مر العصور ، وسمة مميزة لكتابات مؤرخي الحروب الصليبية حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

أضف إلى هذا أن المؤرخين والرحالة الوافدين على بيت المقدس في بداية القرن الثاني عشر من أمثال فوشيه الشارترى Fucher of chartres ، و دانيال الراهب - كانوا متأثرين إلى حد كبير بالمناخ المعنوي العام عقب الاحتلال الصليبي

للقدس الشريف وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية في فلسطين العربية الإسلامية الأمر الذي دفع هؤلاء المؤرخين والرحالة إلى المبالغة والتهويل ومجافاة الحقيقة في كثير من الأحيان وهو ما أشار إليه فوشيه الشارترى في معرض ذكر كثير من الراويات الخاصة بالأمكان المقدسة المسيحية ، وحذا حذوه في ذلك دانيال الراهب ، ومن بعده ثيودريش ، ووليم الصوري ، وغيرهم من المؤرخين والرحالة الذين تحاملوا على المسلمين الموحدين - إلى حد كبير - ونعتوهم بصفات لا تمت بصلة لواقعهم الإيماني ، فتارة يصفونهم بالكفار ، وتارة أخرى بالوثنيين وغيرها من الكلمات الشائعة في كتاباتهم والتي تتم عن حقد دفين للإسلام والمسلمين من ناحية وجعل مطبق بحقائق الحضارة الإسلامية التي نهلت منها أوربا المسيحية لأكثر من ثمانية قرون متتالية من ناحية أخرى.

والذي يعنينا هنا من روايات فوشيه الشارترى ما ذكره عن "الصليب" ضمن أحداث الغزو الصليبي للأرض المقدسة في فلسطين ، ويشير فيها إلى المغارة التي وجدت فيه هيلينا - أم قسطنطين - الصليب الذي صلب عليه المسيح عليه السلام ، وبعض الذخائر الأخرى "الرمح ، والإسفنجة ، والبوصة ، والمسامير".

يقول فوشيه: "وقد أَرْضَى الله في تلك الفترة العثور على قطعة صغيرة من صليب الرب.....، وحمل الجميع هذه القطعة ، وهي على شكل صليب طلى جزء منه بالذهب والفضة...".

وفي تصورنا أن المجتمع في الغرب الأوربي منذ زمن قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) وحتى زمن البابا - جريجوري الأول (٥٩٠ - ٦٠٤م) كان مهياً لقبول سائر الأفكار اللاهوتية المتعلقة بقصة السيد المسيح والتي من أهمها مسألة الصلب والطقوس الكنسية المعبرة عنها والتي تأثر بها الرحالة والمؤرخون المسيحيون في كتاباتهم ومشاهداتهم حتى صارت الديانة المسيحية في فكر عامة

الناس وكانتهما قصة حياته وسيرته الذاتية ، الأمر الذي دفع عدداً من أباء الكنيسة من أمثال أمبروز (ت ٣٩٧م) ، جيريوم (ت ٤٢٠م) ، و أوغسطين (ت ٤٣٠م) وغيرهم إلى الاهتمام بالدراسات الفلسفية الكلاسيكية والاستفادة منها في مناقشة تلك المسائل اللاهوتية المعقدة والتي صارت خلال تلك الفترة محل تساؤلات من جانب جمهور المثقفين المسيحيين.

والروايات التي سردها أيوزيوس أسقف قيسارية ومزداها أن الإمبراطور قسطنطين انتصر في معركة الحربية بفضل "الصليب" الذي رآه في منامه عشية زحفه لملاقاة خصمه اللدود مكسنتيوس " في إيطاليا - تؤكد لنا طبيعة العلاقة بين العقيدة المسيحية في نفوس الذين آمنوا بهذه الديانة الجديدة وبين هذا الشعار الديني الذي اتخذته قسطنطين في القرن الرابع الميلادي وسيلة لتبرير كافة أفعاله السياسية والعسكرية ، وهو ما ساعد - إلى حد كبير - على انتشار المسيحية وازدياد نفوذ رجال الكنيسة في القرن الرابع والخامس الميلاديين.

وثمة نص في الكتاب المقدس عن أهمية "الصليب" ودلالته في إثبات الهوية الإيمانية لتلاميذ السيد المسيح ، ومبلغ الولاء العقيدي لتعاليم المسيحية يكشف عن واقع الحياة الدينية في زمن الإمبراطور قسطنطين ، وحرص الكنيسة على الترسخ لمعتقد "الصلب" في نفوس المسيحيين من خلال طقس "التناول" والذي يشارك فيه المسيحي بطريقة رمزية يتناول كسرة من الخبز "الجسد" وجرعة نبيذ "الدم" كي يتحقق له الاتصال الروحي من أجل التطهير والخلاص وكان مسيحيو العصور الوسطى يعتقدون إمكانية تحول هذا الطقس الرمزي إلى واقع حياتي كما ورد في الكتاب المقدس:

"حينئذ قال يسوع لتلاميذه إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" ، "لأن جسدي مأكّل حق ، ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه،..."

(متى ١٦ : ٢٤ ، يوحنا ٨ : ٢١ ، مرقس ١٨ : ٣٤ ، لوقا ٩ : ٢٣) .

"هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل فيه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد ، فالخبز الذي أعطى هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم". (يوحنا ٦ : ٤٦-٥١) .

" ولما قال أحد الحواريين : حاشا لله يارب من الصلب ، فوبخه قائلاً : أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس " (متى ١٦ : ٢٣) .

وثمة مخطوطات عشر عليها سنة ١٩٤٥م وموجودة بالمتحف القبطى بالقاهرة تضمنت نصوصاً باسم بعض الرسل والقديسين وتروى مزيداً من التفاصيل عن قصة الصلب الواردة فى الأناجيل الأربعة المعروفة .

وبعد ، فإن التوصيف الدينى للصليب سار على التوازي مع التوظيف السياسى لهذا الشعار المسيحى فى الأطوار الزمنية المتعاقبة منذ زمن الاعتراف الأول بالديانة المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ، وحتى زمن الحروب الصليبية التى اتخذت من الصلب رداءً دينياً لممارستها اللادينية. ولم يكن الصلب يوماً سبباً فى الصراع بين الفرقاء ، وإنما كان - لم يزل - وسيلة لتبرير هذا الصراع فى أطره الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

المصادر والمراجع والدراسات العربية والمترجمة

• القرآن الكريم

- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)
(طبعة العيد المنوي - دار الكتاب المقدس ، ١٩٨٣م)

اسحق عبيد تاوضروس: "قصة عثور القديسة هيلانة على خشب الصليب، أسطورة أم واقع"
(القاهرة ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد ١٧ ، ١٩٧٠م) ص ٥-٢١.
إكرام لمعي: الاختراق الصهيوني للمسيحية - ندوة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب ، ١٩٩٢م
(طبعة دار الشروق).

ألفرد بتلر: فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد
(القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٥م)

ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين ، ترجمة وتحقيق ودراسة سعيد عبد الله
البيشلاوي ، ورياض شاهين (عمان - الأردن ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣)
جوانفيل: القديس لويس ، حياته وحملاته على الشام ، ترجمة وتعليق حسن حبشي
(القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م)

جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ - ١٤٥٣م)

(الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٨م)

دانيال الراهب: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين ، تعريب وتعليق ، سعيد عبد الله
البيشلاوي ، وداود إسماعيل أبو هدية ، عمان الأردن ، دار الشروق للنشر والتوزيع ،
(٢٠٠٣م)

رأفت عبد الحميد محمد: الدولة والكنيسة (القاهرة ، دار المعارف ط ٢ ، ١٩٨٢م)
الجزء الأول - "قسطنطين"

سانت موس: ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ - ٨١٤م) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،
راجعه ، السيد الباز العريني (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م).
سعيد عبد الفتاح عشور: أوربا العصور الوسطى ، جزعان في مجلدين ، القاهرة
مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١٩٩٦م.

سعيد مراد: المدخل في تاريخ الأنيان (القاهرة ، دار عين ، ط ١ ، ٢٠٠٠م)

الموسوعة العربية الميسرة ، جزعان في مجلدين ، إشراف محمد شفيق غربال
(القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٦٥م).

عبد المسيح اسطفانتوس: المسيحية والمسيحيون واللغة العربية في القرون الأولى
حتى سنة ٦٠٠ (القاهرة ، د. ت).

السيد الباز العريني: تاريخ أوربا العصور الوسطى (بيروت ، دار النهضة العربية ، د. ت).
فوشيه الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة زياد العسلي
(عمان ، دار الشروق ، ١٩٩٠).

فيشر: تاريخ أوربا القصور الوسطى "الجزء الأول" ترجمة ، السيد الباز العريني
(القاهرة ، دار المعارف ، د. ت).

نعيم حنا: عقيدة الخلاص بين المسيحية والأنيان الرضعية في آسيا
(رسالة ماجستير ، جامعة الزقازيق ، ١٩٩٨م).

نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، محمود زايد (القاهرة، ١٩٥٧م)
نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة وتطبيق قاسم عبده قاسم
(القاهرة، دار عين، ٢٠٠٠م).
ول ديورانت: قصة الحضارة - "الجزء الثالث" ترجمة محمد بدران (القاهرة، ١٩٦٤م)

المصادر والمراجع الأجنبية

Alfold (A.):

- The Conversion of Constantine and pagan Rome, London, Oxford, 1948.

EVSEBIVS:

- Historia Ecclesiastica: Nicene 12, 73-381 (= P . G . XX 45 – 906).
- Vita Constantine: Nicene 12, 473 – 580 (= P. G . XX905 – 1232).

Jones (A. H. M.):

- Constantine and the conversion of Europe, penguin, 1972.

Macmullen (R.):

- Constantine, New York, 19971.

Painter (S.):

- A History of the Middle Ages, New York, 1954.

Saint Augustine:

- The city of Good , Baltimore, penguin, 1972.

Thompson (J. W.)

- History of the Middle Ages , 300 – 1500, London, 1931.

Vasilieve (A.):

- Histoire d, L'Empire Byzamtine 2 vols, paris, 1932.

Walson (H.) The philosophy of the church fathers, Harvard university, 1970.

الفكر العقيدى للإمبراطور جُوليان

بين الشك واليقين

الفكر العقيدى فى الإمبراطورية الرومانية بعد ظهور المسيحية :

قبيل اعتلاء قسطنطين Constantine (٣٠٦ - ٣٣٧ م) حُكم العالم الرومانى كان آباء الكنيسة يبذلون قصارى جهدهم لمقاومة السلطة الملكية المطلقة التى امتزجت فيها القوة بالقداسة التى تجسد الإمبراطور الرومانى فى إطار الوجدانية الإلهية على الأرض والتى تقابلها الوجدانية الإلهية فى السماء ليكون الإمبراطور المقدس نائباً للإله فى العالم السرمدى وهى النظرية التى سادت بين حكام الشرق القديم قبل ميلاد السيد المسيح وتأثر بها الحكام الرومان فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد .

وفى القرن الثالث الميلادى صار الأباطرة الرومان أقل قداسة وهيبة فى نفوس العباد الذين كانوا فى حاجة إلى منقذ " مخلص " يمكنهم الارتباط به دوماً دون شك أو توجس والهروب إليه حينما يريدون بحثاً عن الحياة العلوية السامية التى تغسلهم من ذنوبهم كما يغسل البَرْد الثوب الأبيض من الدنس ، وهو ماسعت إليه الديانة اليهودية من قبل عن طريق صياغة مذهب اخلاقى صارم على أساس الوجدانية ولكنها فشلت فى تحقيقه على أرض الواقع .

وقد أطلق المسيحيون على أنفسهم اسم إكليزيا Ecclesia وهى نفس الكلمة التى استخدمها اليهود فى التوراة بمعنى شعب الله المختار وكان المسيحيين الأوائل يريدون أن يكونوا مجتمع بنى إسرائيل الجديد الذى تتمتع فيه الكنيسة الغربية الكاثوليكية بكيان عالمى يتفوق على سائر الكيانات المحلية للكنائس الأخرى فى أنطاكية ، والإسكندرية ، وفلسطين وغيرها من مدن الكراسى الرسولية لتصبح تلك الكنيسة العالمية الكيان الروحى كل المسيحيين بما فى ذلك الأباطرة

وان كانت أسقفية الإسكندرية من ابرز الأسقفيات فى العالم من حيث محافظتها على تقاليد الكنيسة الأولى .

وبالرغم من اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول سنة ٣١٣ م بالمسيحية ديانة رسمية فى العالم الرومانى . لتبدأ اكبر مشكلة فى تاريخ العصور الوسطى بين الدولة والكنيسة فى القرن الرابع الميلادى- فان الديانات الوثنية كان لها ذبوع هائل بين كثير من الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للإلهة الوثنية لقضاء حاجتهم الدنيوية .

وكانت العقائد الدينية الوافدة من الشرق ملاذاً لهم من شرور هذا العالم المادى مثل ديانة سبيل Cybele من أسيا الصغرى، وديانة متراس Mithras (إله الشمس الذى لا يقهر) من فارس ، وديانة ايزيس من مصر هذا بالإضافة إلى الديانة المسيحية الوافدة من فلسطين حيث ولد السيد المسيح عليه السلام زمن الحكم الرومانى .

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية جوهريّة وشائكة ومعقدة لم تُحل حتى يومنا هذا، حتى صار الحديث فى المسائل اللاهوتية لا يقتصر على رجال الكنيسة من الأساقفة والقساوسة وغيرهم من رعاة شعب المسيح ، بل امتد ليشمل كافة الشرائح الاجتماعية بما فى ذلك الخدم والعبيد والاقنان وغيرهم من عامة الناس الذين صار الحديث بينهم ومع الآخرين حول طبيعة السيد المسيح أمر اعتيادياً فى حياتهم اليومية .

والواقع أن هذه المشكلة " طبيعة المسيح " قسمت الكنيسة العالمية إلى كنيستين والعالم الرومانى إلى عالمين لعدة قرون حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى الذى حسم هذه الخلافات المذهبية بنصوص قطعية مستندة إلى رؤية عقلية ومنطقية تدور حول وحدانية الإله ، وبشرية المسيح ، وهذه

النصوص تفند ماتادى به آباء الكنيسة من أمثال اثنا سيوس القائل بفكرة الثالوث المقدس والتي تحتم مساواة المسيح " الابن " للإله " الأب " فى كل شئ بحكم أنهما من عنصر واحد وكان من الطبيعى أن ينتشر هذا المذهب الاثناسيوسى فى الغرب الأوروبى حيث المستوى الحضارى المتواضع لسكانه الذين تميزوا بنوع من البدائية الفكرية بينما انتشر المذهب الأريوسى بإيطاره الفلسفى فى الشرق ، وهو المذهب القائل بان المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن ولما كان المسيح " الابن " مخلوق للإله "الأب"

فهو لاشك دونه فى الطبيعة والقدرة وبالتالي فان التعادلية بين الخالق والمخلوق أمر غير مقبول فى الفكر العقيدى للإنسان ، وهى الفكرة التى اخذ بها العالم اليونانى / الرومانى القديم فيما يتصل بالتمييز بين مستويات الإلهوية . وفى هذا المعنى يقول أريوس : " أومن بآله واحد متعال يفوق حد التصور ، منطوق على نفسه وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شئ له نهاية ، وهو فريد لاشبيه له ، أزلى لا بداية له لا يموت ، صالح وهو وحده سبحانه ينفرد بهذه الصفات - وعندما شاعت إرادته أن يخلق عالما له نهاية احتاج إلى وسيط ، ولم يكن هذا الوسيط قوة خالقه وإنما كان عاملاً بسيطاً علمه الأب كيفية القيام بهذه المهمة وعلى ذلك فان القوة الخالقة من صفات الأب " .

ويبدو أن أتباع مذهب "اثناسيوس" فى الغرب كان يعتمدون فى عقيدتهم على العاطفة الدينية الخاصة تجاه السيد المسيح ، ولذا فان محاولة تصويره فى إطار بشرى يمثل عندهم نوعاً من الامتهان لذاته وهو ما لاتقبله الشرائع الاجتماعية من عامة الناس الذين أثروا أن يروا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام " معبوداً " لا " عبداً " كما هو الحال عند الأريوسيين الذين ضموا فى صفوفهم الإيمانية كثير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء الذين أقاموا عقيدتهم

على أساس من العقل والمنطق " أن الابن ليس مساوياً للأب في الأزلية وليس من جوهره " .

لقد أجهد الناس أنفسهم في الغرب والشرق بحثاً عن حاجاتهم المادية والروحية في الديانات الوثنية الغامضة وتبعهم في ذلك الشرائع الاجتماعية الخاصة من المتعلمين والمثقفين والأثرياء خارج نطاق القوميات والحواجر الطبقية ، ناهيك عن عبودية الكنسيين والأباطرة من أرباب السلطتين الدينية والزمنية .

ولذلك فإن الإمبراطور قنسطنطين الأول ظل - بعد اعترافه بالديانة المسيحية - ينظر بإحدى عينيه إلى " الصليب " وبالعين الأخرى إلى " الشمس " لكي يتخذ موقفاً وسطياً بين النموذج المسيحي والنموذج الوثني ، وهو نفس الموقف الذي اتخذه قنسطنطين للتوفيق بين أتباع المسيحية الاثناسيوسية ، ونظرانهم الأريوسيين من خلال عقد المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥ م والذي حاول فيه إيجاد معادلة مذهبية توفيقية .

ومما لا شك فيه أن عقيدة التوحيد كانت منذ بدء الخليقة هي العقيدة الثابتة والدعوة المشتركة لكل الأنبياء والرسل منذ آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ولكن كثيراً من الناس أبوا إلا أن يكونوا منحرفين عن الخط الايماني ، والصراط المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده حباً ، ورحمة ، ورأفة ورهبانية .

" وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " * (١) .

(١) البقرة : ٤ ، ٥ .

” ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فمارعوها حق رعايتها فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون * ” (١) .

ولذلك فإن الوثنية التوحيدية التي تمسك جولييان بأهدابها قبيل أن يصبح إمبراطوراً للعالم المسيحي لم تكن - في تصورنا - بقايا من أطلال الوثنية القديمة في العالم اليوناني/ الروماني بقدر ما كانت تجديداً للفكر العقيدى - بعد جمود - وإرهاصاً لإحياء ملة التوحيد - بعد موات - وإيقاظاً لدعوة الذين خلوا من المفكرين والفلاسفة في حرية العبادة والتواصل مع الله .

وهذه القراءة الجديدة في سيرته وطبيعته علاقته بالدين تكشف عن صفحات مضيئة في الفكر الانساني في تلك الفترة القصيرة من حكم هذا الإمبراطور (٣٦١ - ٣٦٣ م) الذي حاول أن يحقق نوعاً من العدل والرحمة في العلاقة بين المخلوق والخالق - أياً كانت طبيعته المذهبية - وكذلك الترسخ للمبادئ الكريمة التي دعا إليها المسيح وسائر الأنبياء والرسل لإقامة حياة فاضلة تمنها لنفسه وللآخرين من اليهود والنصارى والوثنيين مما يجعلنا نتعامل مع تلك الشخصية الحاكمة بنوع من التقدير والإجلال إذ كانت صحوته الوثنية رسالة لحاضر هذا العالم الشقي ومستقبله وهي تلك الرسالة التي نحاول قراءتها في هذه الدراسة .

(١) الحديد : ٢٦ ، ٢٧ .

جوليان المرتد ، متى ، وكيف ، ولماذا ؟

يُعرف "جوليان" في المصادر والمراجع المسيحية باسم جوليان المرتد أو "العاص" أو "ابن الشيطان" JulianTheApostate وهي تسمية تأباها المصادر الإسلامية التي تفرق بين الذين آمنوا بالمسيحية كديانة سماوية وبين الذين ابتدعوا مذاهب نسبت إلى المسيحية وهم "النصارى" ، ولذلك فإن تلك المصادر تذكر جوليان أو "يوليانوس" باعتباره ثالث ملوك النصارى "البيزنطيين - الروم" .
" . . . ثم ملك بعده يوليانوس (جوليان) ابن أخيه سنتين ، وكان يدين بمذهب الصابئين ويخفى ذلك فلما ملك أظهرها ، . . . " وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية

لقد أثار جوليان المرتد - في نظر الكنيسة - اهتمام كثير من الباحثين والدارسين سيما أولئك الذين يعرفون للثقافة الكلاسيكية حقها ، ويقدرونها ويجعلون شأنها أعلى بكثير من شأن ما تدعو إليه المذاهب المسيحية التي وقفت عاجزة في مواجهة الفكر الديني الوثني الذي شاع في الأوساط الارستقراطية الرومانية ، وبات يشكل تحدياً كبيراً ، وتهديداً سافراً لمصداقية آباء الكنيسة الغربية الذين حاولوا أن يقدموا العلاج لكثير من مشكلات الناس الحياتية في إطار الأوهام والخرافات التي سادت في صفوف المجتمعات المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى الباكورة مما أوجد حالة من الغموض في فهم أمور العقيدة .

ولا يختلف اثنان من المؤرخين في أن "جوليان" كان على قدر عال من الثقافة بفضل دراسته للفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، والنتاج الأدبي اليوناني / الروماني أثناء إقامته الإجبارية في أثينا حيث اطلع على مؤلفات الأغريق القدامى كما قرأ في العهد القديم والأنجيل المختلفة ، وتأثر في نيقوميديا

بالفيلسوف "ليبانيوس" Libanius (٣١٤ - ٣٩٢ م) الذي اظهر له فضائل الوثنية الأغريقية على المسيحية ، ومن ثم رأى جولييان أن ثمة علاقة بين النظام الكنسى والنظام العبودى الذى يعوق حركة الإنسان فى عمارة الكون على أسس الحق والعدل والإحسان والمساواة والتى تدعو إليها الأصول المسيحية الباكراة فى حقيقة الأمر .

ومن المعروف بين جمهور الباحثين الأوربيين من أمثال بوركهارد Burkhard وبيجانيول Piganiol ، وبالاتك Palanque أن الإمبراطور قسطنطين أدرك بثاقب نظره أن الإمبراطورية كانت تعاني حالة من الضعف والتردى فى مختلف جوانب الحياة ، وأن الكنيسة باتت طوق النجاة لها فى بحر مظلم لجى وكان حتماً مقضياً عليه أن يتقبل لقب البطل المسيحى معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge سنة ٣١٢ م التى انتصر فيها على خصمه اللدود مكسنتوس Maxentius بفضل شارة الصليب التى وضعها على دروع جنوده ، ومنذ ذلك أدرك قسطنطين أن "المسيحية" هى الورقة الدينية الراححة فى مواجهة كافة التحديات والأخطار المحدقة به بإرادته القوية المستمدة من إرادة الرب .

ولاشك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، وماتلاه من مجامع مسكونية هو المسنول الأول عن إنتاج مسلسل المذاهب العقيدية المسيحية ، والمراسيم المناهضة للوثنية التوحيدية والاربوسية العقلانية ثم المنوفيزتية (مذهب وحدة طبيعة المسيح) ثم الصراع على الكرسي الرسولى بين الكنائس المختلفة فى روما والقسطنطينية ، والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من مدن الرب ناهيك عن حرق كل الكتابات اللاهوتية المخالفة للأناجيل المعترف بها آنذاك .

ويبدو أن جولييان الذى نشأ وترعرع فى أسرة قسطنطين قد تخلص عن هذه المسيحية بمذاهبها المتعددة قبل أن يتولى منصب الإمبراطورية

ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الإمبراطور قنسطنطيوس الثانى سنة ٣٦١م حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ليصبح آخر الأباطرة الوثنيين (The Last Polytheist Roman Emperor)، وشرع فى تخليص الوثنية من كل ماتعرضت له من ظلم وقهر على أيدى أنصار الديانة الجديدة التى اعترف بها عمه قسطنطين لتحقيق طموحاته السياسية والعسكرية .

ومن المعروف تاريخياً أن جوليان الذى وُلد فى سنة ٣٣١م ، قد نشأ وتربى فى البلاط الإمبراطورى لأسرة قسطنطين ، وتولى أمره فى هذه الفترة يوساب أسقف نيقوميديا ، وشهد فى سنوات عمره الأولى مقتل والده وجميع أقربائه مما جعله يكره قسطنطين الأول وذريته إلى آخر العمر .

والواضح فى روايات جمهور المؤرخين أن جوليان ماكان يهودياً ولا نصرانياً وما كان متعصباً ضد معتنقى هاتين الديانتين بل على العكس فإنه كان يرى فى تعاليم المسيحية السحاء ما يتمنى أن يراه بين الوثنيين أنفسهم كما أنه كان يدعو إلى المساواة بين اليهود والنصارى فى حق العبادة وممارسة الطقوس الدينية فى المعابد والكنائس وهو مايعنى أن جوليان كان بعودته إلى الوثنية يريد أن يكون مجتهداً ومجدداً وباحثاً عن الحقيقة المشتركة بين أصول الديانتين - اليهودية والمسيحية - وهى تكريم الإنسان وإعلاء قيمته فى هذا الوجود بدلاً من أن يتحول إلى العوبة آدمية فى أيدى الكهان والأخبار والرهبان وغيرهم .

وهو ما حاول بعض آباء الكنيسة فى القرن الرابع من أمثال أمبروز (٣٤٠ - ٣٩٧م) و أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) أن يتداركوه فى مواجهة الجدل المثار بين جموع المثقفين حول طبيعة الإله ، والعلاقة بين الله والمسيح وغيرها من المسائل اللاهوتية التى تحتاج فكر دينى سوى يستند على منهج علمى وليس إلى تصورات

عاطفية تداعب خيال العامة فى علاقتهم بالمعبود فى مرحلة صارت فيه المسيحية أكثر الديانات جاذبية فى المنظور الشعبى الرومانى .

وفى تصورنا أن جوليان لم يكن مرتداً عن المسيحية بقدر ما كان ثائراً على رجال الكنيسة (الاكليروس) فى جمودهم الفكرى وغطرستهم غير المبررة ثقافياً ، ومثله فى ذلك مثل جمهرة الفلاسفة والمفكرين الذين وجدوا أنفسهم أمام خيارين ، إما أن ينصاعوا لحفنة من الجهلة والمتعصبين تحت مسميات لاهوتية شتى ، وإما أن يبحثوا عن حياة عقيدية تثرى ملكاتهم الذهنية والروحية وهى الحياة التى ارتضاها جوليان وجمع فيها بين روافد الثقافة الرومانية والأغريقية من ناحية والتراجم العبرانية الساحرة الواردة فى التوراة السبعينية من ناحية ثانية ، ثم مبادئ السلام والحب والوئام فى التعاليم التى جاء بها المسيح عليه السلام ، وهى التعاليم الثابتة التى نادى بها الرسل والأنبياء من قبل ومن بعد ، والمؤسسة على رغبة الإنسان الطبيعية فى الاتصال المباشر بالمعبود المقدس " إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى " (١) .

" لقد حان الوقت لكى تفتح المعابد ، وتقدم القرابين على المذابح ، وتعود عبادة الآلهة القديمة " هكذا قال أميانوس الذى عاش فى مرحلة شهدت هجوماً شرساً من المسيحية على الوثنية

(١) الأعلى : ١٨ ، ١٩ .

عوامل تطور الفكر العقيدى لجوليان :

والواقع أن " جوليان " تلقى منذ نعومة أظافره قدراً من التعليم الدينى المسيحى ولما بلغ أشده كان يقرأ الكتاب المقدس " الإنجيل " على الشعب فى كنيسة نيقوميديا ، إلا أن قلبه ظل متعلقاً بالوثنية التوحيدية التى رأى فيها من الفضائل العملية ما لم يره فى الذين انتسبوا إلى المسيحية زوراً وبهتاناً من أمثال أسرة قسطنطين ، وبخاصة قسطنطيوس (ت ٣٦١ م) المسنول عن مقتل أبيه وأخيه وعدد من أهله مما جعله يربط بين المسيحية وتلك النماذج السيئة من الأباطرة الذين مارسوا كافة أشكال الظلم والاضطهاد تحت ستار الدين .

ومن ناحية أخرى فإن " جوليان " رأى - بفكره - أن الوثنية التوحيدية بجذورها الممتدة عبر العصور الخوالى هى الأسلوب الأمثل لاسترداد سمات الحضارة اليونانية - الرومانية بدلاً من المسيحية التى لم تستطع على مدى ثلاثة قرون أن تقدم حلولاً عملية لمشكلات البشر الدنيوية بل أن آباء الكنيسة من أمثال " بولس " وضعوا دعائم الكنيسة العالمية " الكاثوليكية " على أساس لاهوتى يتصل بالغيبيات كالبعث ، والحساب ، والخلود الأخرى مما حول المسيحية إلى ديانة عاطفية أقبل عليها الفقراء ، والضعفاء ، والجهال وأعرض عنها الأثرياء ، والأقوياء والعلماء .

ومن المؤكد أن " الديانة " التى أرسل بها عيسى عليه السلام - ليست محلاً للمقارنة بأية ديانة وثنية معاصرة - غرباً أو شرقاً - إذ أن التعاليم التى أتى بها - هى من وحى السماء ولاشك - وليست فلسفة خاصة - من وحى ذاته - إلا أن الخلافات المذهبية الحادة بين الأتباع ومحاولات التوفيق والتبديل بين تلك المذاهب هو الذى أحدث شرخاً كبيراً فى البناء العقيدى بعد رحيل المسيح عن هذه الدنيا مخلفاً للبشر

جميعاً قصة حياتية بلغت فى مثاليتهما مايفوق تصورات "الأتباع" العقلية فكان تفرقهم واختلافهم من بعد ماجاءهم من البيانات والذكر الحكيم فى ظل مناخ دينى وثنى ظهر فى الشرق ، وانتشر صوب الغرب .

وهذا مادفع " جوليان " وغيره من المتعلمين والمثقفين إلى البحث عن مبتغاهم الإيماني بين أرفف المكتبات الوثنية فى روما وأثينا وغيرهما وأشارت إليه أحدث الدراسات التاريخية الأوروبية فى إطار العلاقة بين الفلسفة والدين وهى تلك الدراسات التى تأثرت إلى حد كبير بكتابات " فيلون " السكندري اليهودى الذى سعى جاهداً للتوفيق بين الايمان بالعهد القديم والتراث الفلسفى اليونانى .

ولعل إخفاق " جوليان " فى تحقيق ما يصبو إليه فى مواجهته مع المسيحية يعود - فى تصورنا - إلى غياب المعتقدات الصحيحة فى الديانتين - الوثنية والمسيحية فكلتاهما تعتمدان على طقوس دينية مشتركة اختلطت فيها كتابات الفلاسفة الوثنيين (الراطازات) Myths مع كتابات الفلاسفة اللاهوتيين (المدرسانيون) حيث دارت الحوارات فى المجالس الكنسية الكبرى حول أفكار أفلاطون وأرسطو التى اصطبغت بها أفكار البشر آنذاك بل إن جوليان كان يتطلع إلى مؤسسة وثنية على غرار الكنيسة تضم مجموعة من ذوى الرتب الدينية ومجموعة من المستشفيات والجمعيات الخيرية ، والكتب المحرمة .

إن كان جوليان غير موفق - إلى حد كبير - فى تقديم صياغة صحيحة لديانته الوثنية وبالرغم من تلونها بالديانتين الأخريين - اليهودية - المسيحية - فإنها افتقدت القبول لدى كثير من البشر الباحثين عن فكرة الخلاص ، وتراجعت أمام الأدب الشعبى الكنسى الذى تعزز بالكتاب المقدس الانجازات الحضارية المبهرة التى أحرزها الرومان فى ميادين الأدب والفن والعمارة وغيرها من الانجازات

التي صارت في أخيلة الناس أثراً بعد عين ومن ثم تكون الحياة معها نوعاً من البكاء على اللبن المسكوب .

وينبغي ألا ينظر إلى موقف جوليان من المسيحية على أنه " صراع " بين ديانتين أحدهما وثنية والأخرى سماوية أو أن ينظر إلى جوليان نفسه على أنه " مرتد " ، لماذا؟ لأنه كان يتشكك في كل شيء ولم يصل إلى اليقين في أي شيء ، وظل حائراً بينهما إلى آخر عمره !

فالمسألة لا تخرج عن كونها منافسة بشرية بين مدرستين فكريتين وكلتاها تبحثان عن أعلى نسبة ممكنة من التأييد الشعبي ، ولهذا سعت كل مدرسة إلى التنقيب في سجلات ودفاتر المدرسة الأخرى المنافسة حتى صار الزهد ، والصوم والتبتل ، والتطهر وغيرها من النسك والطقوس أمور مشتركة بينهما ، بل إن جوليان " الوثني " كان أحياناً ينتقد الوثنية في بعض جوانبها ويمتدح أحياناً أخرى المسيحية في بعض جوانبها وبالتالي فإنه لم يكن " مرتداً " - كما اصطلح كثير من المؤرخين على ذلك - وإنما كان " مجتهداً " يستفتح رؤاه وتكهناته بالتي هي أحسن من الكتب السماوية أو كتب هوميروس وفرجيل أو غيرها من الكتب الفلسفية .

وبالرغم من أنه حاول الموازنة - من حيث الشكل - بين المسيحية والوثنية فإنه لم يحد عن فكرة علو كعب رجال الدين الوثنيين على رجال الكنيسة من حيث الامتيازات والرعاية لشئونهم الداخلية ، ورغباتهم الدينية والدنيوية " وأن الوقت قد حان أن يفعل ما يجب " .

لقد تشابه جوليان " الوثني " مع أوغسطين " المسيحي " من حيث الرؤية الوجدانية لسر هذا الوجود ، فكلاهما كان يبحث عن " المجهول " ومحاولة الوصول إلى " المطلق " من خلال " المحدود " وهي المعادلة التي عالجها الأخير في كتابه

الشهير "مدينة الله" Civitas Dei والذي يعقب عليه احد الباحثين الاوربيين بقوله :

" ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب " مدينة الله " الذي وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيداً حاداً للتدخل الالهي في الشئون البشرية أكثر منه فلسفة للتاريخ وألفيناه رؤية وجدية أكثر منه صوغاً تكهنياً للحدود القادمة مستقبلاً للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى على الحقائق المحزنة التي يحتويها زمانه (القرن الرابع الميلادي) بما حواه من وصف لمجتمع مثالي يقوم على مبدأ العدالة الحقّة ، فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدنية سرمدية لم تبناها يد " وهذا الفكر الفلسفي انتهجه جوليان في بحثه عن حقائق الوجود ، وتفسير الظواهر الطبيعية في إطار تصوفي بحجة تجميع قوى الوثنية كلها في مواجهة أعداء هذه المدينة الفاضلة الذين هم أعداء كل الراغبين من البشر في السكنى بها في إطار المحبة والإخاء وهي نزعة تأملية حلت محل النزعة الرواقية القديمة ابتداء من أفلاطون وحتى إيامبليكوس Iamblichus الذي وضع الشكل النهائي للرواقية التي اتخذها جوليان منهجاً في مناهضة المذاهب المسيحية المعاصرة بحيث صارت الوثنية التوحيدية عند جوليان مرادفاً للهلينستيه Hellenism أو هي النظر اللاتيني للثقافة الكلاسيكية اليونانية .

والواقع أن "جوليان" قد تأثر إلى حد كبير بالفكر اليهودي والتراث الفلسفي لحضارات بابل والفرس الإغريق المتمثل في طائفة الغنوصيين الذين حاولوا صياغة ديانة مسيحية جديدة تقوم على خلط التعاليم الأصولية للمسيحية بالآراء الميتافيزيقية للفلاسفة الوثنيين واللاهوتيين في العالم اليوناني والروماني مما حول المسيحية إلى مذاهب عقيدية شتى تدور في فلك الصراعات العقيدية الأخرى ، وهو ما حاول قنسطنطين الكبير أن يواجهه بفطنته السياسية وطموحه الشخصي

حتى وإن كلفه ذلك الاعتراف الرسمي بالديانة الجديدة والتحول عن روما "الوثنية" على ضفاف التiber إلى روما "المسيحية" على ضفاف البسفور خاصة بعد أن ازدادت حدة الصراع بين المسيحية والوثنية واستشعر عدم قدرته على إجبار الأرستقراطية الرومانية على الدخول في حظيرة الدين الجديد .

علاقة جوليان باليهودية :

في الوقت الذي راح فيه جوليان يقلب وجهه في النخائر الوثنية ، والديانات الوضعية بحثاً عما كان يعبد أسلافه في بلاد اليونان والرومان القديمة ، كان يسعى كذلك إلى مخاطبة ود اليهود ومداراتهم في كافة أنحاء الولايات الرومانية ، موصياً إياهم بالصبر والجلد والثبات على ما هم فيه من بلاء ، واعداء إياهم بغد أفضل للديانة اليهودية ومستقبل مشرق لكل يهود العالم بعد عودته مظفراً من معاركه الشرسة مع الفرس لكي يقدم لهم الدعامة والحماية ويوفى لهم بالنذر في إعادة بناء معبدهم الميمون في المدينة المقدسة "أورشليم" ليتباهوا به على سائر الكنائس في العالم .

ومن المعروف تاريخياً أن "اليهودية" جذبت اهتمام أبناء الطبقة الأرستقراطية على عكس المسيحية وعلى الرغم من أن اليهود لم يقوموا بأي نشاط تبشيري فإن عدداً من الرومان قد دخلوا في الديانة اليهودية ، ولكن تمسكهم بها كان ضعيفاً إذ أنها كانت مازالت غامضة في مفهومها عن "المخلص" و"الخلود" في الحياة الآخرة وغيرها من المسائل اللاهوتية ، وربما كان سر جانبيه هذه الديانة بالنسبة لـ جوليان أنها تأثرت إلى حد ما بالتراث الفلسفي اليوناني ، ومن ثم جمعت بين العلم والدين ، بل إن الألب العبراني جذب أنظار أبناء الطبقة الأرستقراطية

الرومانية ، ومن ثم حاول جوليان أن يوفق بين التراث الفلسفى اليونانى ، والتراث اليهودى المحفوظ فى العهد القديم .

لقد كان جوليان يتطلع إلى استعادة المجد القديم لليهود ومداعبة خيال أحبارهم فى الأرض الموعودة "أورشليم " Jerusalem بدافع من غروره العقيدى القديم ، ورغبة فى انتهاك حرمة الديانة الجديدة "المسيحية " وهو ما يشكل نوعاً من المداراة لأرباب الديانات السماوية المعاصرة ومثلما أوحى للمسيحيين بأنه يعتز بمبادئ وتعاليم ديانتهم فإنه أوحى لليهود باعتزازه وتقديره لصحف موسى عليه السلام ، ومن ثم فإنه أخذ كثيراً من طقوس اليهود وشعائيرهم وكان أقرب إليهم - فكراً - من النصارى ، ولذا قام بعدة إجراءات ساهمت - فى عهده - فى إعلاء شأن اليهود والديانة اليهودية بعد أن كانوا فى ذاكرة الأباطرة الرومان نسياً منسياً وفى ذاكرة النصارى أنهم "أولاد الأفاعى " على تعبير الكتاب المقدس " العهد الجديد " أو الأدناس " كما وصفهم "اميانوس ماركيلينوس" .

وفى تصورنا أن جوليان الذى دغدغ مشاعر اليهود الدينية ، بإقامة معبد كبير لهم فوق جبل موريه ، وإعادة بناء الهيكل القديم - الذى لم يكتمل بسبب وفاته - والتعبير عن اعتزازه بالديانة اليهودية ، وتقديره للتوراة Torah - إحدى مكونات العهد القديم - لم يكن يسعى إلى دعم اليهودية وتعزيزها بقدر ما كان يسعى إلى مواجهة ردود فعله الشنعاء ، ألا وهى تحوله عن الديانة المسيحية واعتناقه ديانة وثنية تختلط فيها الرؤى والأفكار مما جعله فى حالة من عدم التوازن بين الديانات الوضعية الساحرة ، والديانات السماوية التى باتت - فى القرن الرابع غامضة وشائكة وغير مقنعة فى فكره العقيدى .

وربما يمتد تصورنا إلى ما هو أبعد من ذلك فى الفكر العقيدى لهذا الإمبراطور الحائر ونقول أن جوليان كان يحاول أن يؤسس ديانة جديدة

على غرار الديانات الوضعية المعاصرة ديانة تقوم على فضائل سائر الأديان السماوية ، والوضعية ، وكأنه مثل أسلافه في بلاد اليونان كان يبحث عن " مدينة فاضلة " - يوتوبيا (Utopia) - تتحد فيها أطلال الحضارة الوثنية القديمة - عند الرومان واليونان - بمآثر الديانتين اليهودية والمسيحية ، وهي المدينة التي تعتمد على منهج أفلاطون (Platonism) الداعي إلى الوحدة الكونية (Cosmology) وهو المنهج الذي اتخذه جوليان في صراعه مع المسيحية متصوراً بذلك أنه سوف يبلغ "اليقين" الذي يبدد شكوكه تجاه الديانات الأخرى وماهو ببالغه .

جوليان وصحوة العقيدة في عصره :

ومع أن كثيراً من الغيورين على الديانة المسيحية - قديماً وحديثاً - تصوروا " جوليان " في أخيلتهم وكتاباتهم على أنه الإمبراطور الوثني " المرتد " ، فإن حقائق التاريخ تشير إلى أن هذا " المرتد " - في نظر الكنسيين - كان عاملاً رئيساً ليس في صحوة الوثنية فحسب ، ولكن في صحوة المسيحية الخاملة في القرن الرابع الذي شهد تطوراً ملموساً في اللاهوت بفضل ثلثة من آباء الكنيسة من أمثال جيروم (٣٣١ - ٤٢٠) و أمبروز (٣٤٠ - ٣٩٧) و أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) وغيرهم من آباء الكنيسة الذين كانوا على معرفة جيدة بالفلسفة الكلاسيكية ، فأفادوا منها في وضع دراسات لاهوتية تحظى بقبول المتعلمين والمثقفين.

فالقديس أمبروز مثلاً - الذي عاش في مدينة تريف Terves حيث وجدت بها المدارس والمكتبات ، وقصدها المشاهير من الدارسين ورجال العلم حظى باحترام الأباطرة بسبب نجاحه المتميز في الدراسات اللاهوتية حتى عرف في الأوساط العلمية بوصف " خادم جيد للصالح العام " إذ أنه تحول بالمسيحية من لغة الوعظ بين العامة من الفقراء والبسطاء ، إلى لغة الحوار مع الآخر وهو ما نجح في تحقيقه

فى مناظرته الشهيرة مع الفيلسوف الوثنى "سيماخوس" Symmachus زعيم الارستقراطية الوثنية والتي أكد فيها على حقيقة أن "المسيحية" هى الديانة الحقيقية الوحيدة دون سائر الديانات الأخرى، بينما رأى سيماخوس أن ثمة طرقاً كثيرة تقود إلى الله "المعبود الواحد" يختار المرء منها ما يشاء... ولم لا؟! ألم ينص مرسوم ميلانو على حرية اختيار العقيدة، وحرية اختيار المقدسات؟.

"Christians and all other men given the Free right of Following the religion which they wished" ويبدو أن الظروف السياسية كانت فى صالح الصياغة الفكرية لامبروز إذ أن فكرة الربط بين "الحرية" و "الطاعة" للسيد المسيح كانت تسير على التوازى مع فكرة الحرية وطاعة الإمبراطور أو مايمكن أن نضعها فى إطار الصياغة العلمانية لمذهب امبروز المستمد من رأى القديس بولس القائل بان الحرية الحقيقية تتمثل فى طاعة اليسوع، وهو مايعنى التصريح للأباطرة بشن حرب ضارية ضد الوثنيين وحرمانهم من ممارسة طقوسهم بشتى الطرق وهى النظرية التى تحولت فيما بعد ضد الآباطرة أنفسهم بمعنى أن الكنيسة حاولت فى أعقاب وفاة جوليان أن تقمع كل مظاهر الفكر الحر بمعاونة الآباطرة الذين استمروا فهم الحرية فى إطار "طاعة الدولة".

ويبدو أن جوليان لم يكشف عن طويته تجاه المسيحية دفعة واحدة بل تدرج فى التعبير عن موقفه منهم بطرق وأساليب مختلفة بدأها بإصدار مرسوم تضمن منح كل سكان العالم الرومانى حرية العقيدة، وممارسة الطقوس الدينية فى إطار المحبة والسلام، والتسامح وغيرها من القيم الإنسانية النبيلة التى قامت عليها دعوة المسيح عليه السلام وبالتالى يكون من حق الوثنيين التمتع بهذه القيم، وتجريم

المسيحيين الذين يضطهدونهم فى عقائدهم ويخالفون بذلك تعاليم يسوع :
" طوبى للرحماء طوبى لصانعى السلام " (١) .

ولقد فتح جوليان بذلك أبواب الجدل الدينى على مصراعيها بين كافة الطوائف والمذاهب المسيحية ، وبخاصة الجدل المثار حول طبيعة المسيح بين الأريوسيين من ناحية والنيقيين من ناحية أخرى ، وربما كان هدفه من وراء ذلك هو زيادة الفرقة والانقسام بين هذه الطوائف المسيحية بغرض إضعافهم وتشتيت شملهم ، والخط من هيبة رجال الكنيسة على تباين درجاتهم الوظيفية فى منظور الطبقات الشعبية ، لكى يفسح المجال أمام الفلاسفة الوثنيين فى نشر أفكارهم وأرائهم العقيدية ، وبذلك تعود الكنيسة إلى حالتها البدائية فى غضون سنوات قليلة ، ويعود رجال الدين المسيحى إلى أوضاعهم الأولى مخلفين من بعدهم خلف من المتعصبين والجهال الذين لا يقدرّون على شئ فى مواجهة الفكر الوثنى المتميز .

ولم يقتصر الأمر على رجال الدين المسيحى بل امتد ليشمل جميع المسيحيين المدنيين والعسكريين الذين حُرّموا من وظائفهم فى الدولة والجيش كما مُنعوا من السفر والترحال كيلا يقومون بأعمال التبشير، فضلاً عن إلزام المسئولين عن مصادرة أراضي الوثنيين أو بناء كنائس عليها بدفع تعويضات ومن يعجز عن دفع التعويض ، فانه يصبح رهيناً للدائن يقتص منه كيفما شاء مثلما حدث مع الأسقف مرقص الذى هدم احد المعابد الوثنية ، ولم يستطع أن يدفع التعويض المالى فكان عليه أن يلقي جزاء ذلك التعذيب بطريقة قاسية ، حتى عفا عنه جوليان وأطلق سراحه دون أن يهدأ له بالاً فى البحث عن وسائل تحط من شأن المسيحيين الذين قابلوا طموحه الفكرى بالصمت المطبق والسخرية

(١) متى : الإصحاح الخامس ، ٥ - ١٠ .

اللاذعة حتى صارت مناهضته للمسيحية نوعاً من البكاء على أطلال وثنية
ينعق فيها اليوم بل أن آخر المؤرخين الوثنيين (زوسيموس) عزي سقوط "روما"
سنة ٤١٠ إلى غضب الآلهة بسبب تحول الرومان إلى المسيحية أو بالأحرى
بسبب تحولهم عن الفضائل الأربعة التي اجتمعت في جوليان وهي : الانضباط
والحكمة ، والعدل ، والشجاعة أو كما قال اميانوس في تحليله لشخصية
هذا الإمبراطور الفيلسوف .

والخلاصة أن هللنسية جوليان لم تستطع أن تصمد في مواجهة التيار
الجارف للمسيحية في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي ، باعتبارها المصدر
القوى في مواجهة " الرطازات " Myths وقصص الآلهة القديمة التي لم يعد لها
قبول لدى جمهور المتدينين على عكس المسيحية التي توارت أمامها سائر العبادات
الأخرى معتمدة في ذلك على الكتاب المقدس الذي أتاح للناس فرصة الخلاص
والهروب في مواجهة كثير من مشكلاتهم الحياتية وهو ما حاولت الوثنية أن تقدمه
لهم في مراحلها المتأخرة ، وتأثرت به المسيحية في إطار مذهبها العقيدية المتباينة
عندما أصبحت ذات سمة فلسفية .

وغير خاف على أي باحث في مجال العصور الوسطى أن الانجازات
التي أحرزها الرومان بما فيها من أمور عقيدية لم تكن وليدة الفكر الروماني الذاتي
، بل كانت مقتبسات من نتاج الفكر اليوناني القديم في مختلف الميادين
(الدين - الأدب - الفن - العمارة ، الخ) إذ أن الرومان لم يكونوا عن قدر
عظيم من الإبداع ومن ثم فإن محاولة إحياء الفكر الديني الوثني من جانب جوليان
كانت نوعاً من النفخ في الرماد في وقت كانت فيه ديانة سماوية جديدة
تشع بأضوائها الباهرة في عالم العصور الوسطى الباكورة .

وفى هذا المعنى يقول المؤرخ الرومانى بيورى J.Bury :

" لم يبتكر رومان الإمبراطورية شيئاً ، وليس من الغلو فى شئ أن نقول ، أن الصفة الغالبة على العالم الرومانى من عهد أوغسطس حتى سقوط أوغسطس (٤٧٦ م) هى الافتقار إلى الأفكار والعجز عن التفكير الجاد العميق وفرط التوقير للمراجع المعتمدة " .

لقد كان جوليان أثناء محاولته إعادة الديانة الوثنية والعبادات الأولى بنوع من التصرف والاجتهاد - يهدف فى الحقيقة إلى تأسيس " مسيحية " جديدة يختلط فيها " نتاج العقل " مع " نتاج الروح " ولم يدر حينئذ أنه يسبح ضد التيار الكنسى الجارف بكل ما فيه من عوائق ومفارقات يصعب معها الاستمرار فى مصارعة الأمواج المذهبية العاتية التى لم تلق بالاً لملكة الاستدلال العقلى وزمن الفكر الجميل الذى كان يسعى إليه جوليان ولكن عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء ، فما كان جوليان يهودياً ولا نصرانياً ، وإنما شئ آخر حاول أن يجده بعقله وروحه معاً ! على أن أهم ما أفرزته تلك الفترة التاريخية القصيرة من حكم جوليان (٣٦١ - ٣٦٣ م) هو عجز الكنيسة الغربية عن كسب تأييد الأباطرة الرومان فى وئد بقايا الوثنية وذلك على مدار العقود التالية وحتى نهاية حكم أسرة قسطنطين فى نهاية القرن الرابع الميلادى .

لقد مات جوليان جريحاً ، ولفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مناقشته الرفيعة مع بعض الحكماء حول " طبيعة الروح " :

قائمة المصادر

والمراجع العربية والأجنبية

* القرآن الكريم

* الكتاب المقدس

المصادر العربية :

ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ، ت ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م)

— الكامل في التاريخ (دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م)

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ، ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

— تاريخ الدول والملوك المعروف بـ " تاريخ الطبري "

(دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م)

المسعودي : (أبو الحسن علي بن الحسين ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)

— مروج الذهب ومعادن الجوهر " ٤ أجزاء "

(المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م)

مؤلف مجهول: تاريخ القسطنطينية، تحقيق وتعليق، د. طارق منصور تقديم د. زبيدة عطا

(مصر العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٨ م)

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ، ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)

— معجم البلدان " ٥ أجزاء "

(دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م)

المراجع العربية :

ادوارد جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي درة

(دار الكتاب العربي ، القاهرة ، د. ت)

د. حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي

(معهد الدراسات والبحوث العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ م)

د. رأفت عبد الحميد محمد : الدولة والكنيسة

(دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ م) " الجزءان الثاني والثالث "

د. زكي شنودة : تاريخ الأقباط (جمعية التوفيق القبطية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م)

د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى " جزءان "

(مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، ط ١٠ ، ١٩٨٦ م)

- د. سعيد مراد : تاريخ الأثيان (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م)
- د. شعبان عبد العزيز خليفة : مجموعة الببليوجرافيا التاريخية — الكتب والمكتبات في العصور القديمة (الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٧)
- مجموعة من الباحثين : الموسوعة العربية الإسلامية (دار الشعب ، القاهرة ، د. ت)
- د. محمد خليفة حسن : مدخل إلى أسفار العهد القديم (القاهرة ، ١٩٩٦ م)
- المورد (قاموس انجليزي /عربي ، بيروت ط ١٨ ، ١٩٨٤ م)
- موس : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة د. عبد العزيز جاويد (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ م)
- نورمان كانتور : التاريخ الوسيط " جزءان " ترجمة وتعليق د. /قاسم عبده قاسم (دار عين ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠١ م)

المصادر والمراجع الأجنبية :

Ammianus Marcellinus :

- The Later Roman Empire (A-D.354-378) Selected and

Translated by

Walter Hamilton Withe an Introduction and Notes by Andrew

Wallce – Hadrill England , 1986 .

Atia (A.S.) :

- A History of Eastern Christianity , London, 1968.

Baynes N.H.:

- Constantine and the Christian Church .

Bower sock, Glen Warren," Julian the Apostate, London (1978).

Brown (p.R.):

- Religion and society in the Age of st. Augustine , London 1972.

Browning, Robert, The Emperor" Julian, London (1975).

Burekhard (J) :

-The Age of Constantine the great , New York ,1949.

Bury(J.B.) :

-History of the later Roman Empire , New York ,1957.

David (K)

-The evolution of the Medieval though, Hong Kong, 1976.

David S Potter The Roman Empire at Bay AD(180-395) Routledge New York, 2004.

Eusebius , Bishop of casearea :

- Ecclesiastical History , Grand Rapids : Baker Books ,1974.

Jones : (A.H.M) :

- Constantine and the Coverion of Europe , London 1948.

Kasem ,A.K:

- Historical texts in Medieval Civilization (Mansour University 2008).

Lensxi ,Noel Emmanuel Failure of Empire : Valens and the Roman State in the Centry AD, UC Press, London (2003).

Ostrogorsky .G :

- History the Byzantine State – New Brunswick N.J.Rutgers University press.1957.

Painter (S.) :

- History of the Middle Ages, London 1948.

Roberts,Walter E and Michal Dimaio" Julian the Apostate 360-363 A.D)" De Imperatoribns Romanis(2002).

Rosen,Klaus, Julian Kaiser, Cottind Christenhasser,Klett ,Cotta Stuttgart (2006).

Smith Rowland :

- Julian's ,gods : Religion and Philosophy in the thought and action of Julian the Apostate , London ,1995.

Thompson(J.W.) :

- History of the Middle Ages,300- 1500 London 1931.

Vasiliev(A.A) :

- A History of the Byzantine Empire, Madison & Mitwauke,1964.

English Sites:

المواقع على الأنترنت

1. <http://en.wikipedia.org/wiki/julian-the-Apostate>.
2. <http://www.roman-empire.net/collapse/julian-index.html>
3. <http://www.geocities.com/athens/parthenon/7094//julian.html>
4. <http://ancienthistory.about.com/od/julian/a/julianapostate.html>
5. <http://www.theosophy-nw.org/theosnw/world/med/me-mclk.html>
6. <http://www.Fordham.edu/halsall/ancient/julian-mispogen.html>
7. <http://www.Sacred-texts.Com/Cla/toj/>
8. <http://www.roman-emperors.org/julian.html>
9. <http://www.juliansociety.org/>
10. <http://roman-history.suite101.com/article.cfm/julian-the-apostate>.
11. <http://emperorjulian.com/>
12. <http://www.Library.Flawlesslogic.com/julian-1.html>
13. <http://www.Clasclifton.com/review/julian.html>

مرسوم الإملاء البابوي (١٠٧٥ م) وخطبة مجمع كليرمون (١٠٩٥ م)

” دعوة لحرب صليبية عالمية ”

(قراءة في النص)

ثمة جدل شديد بين المؤرخين حول دور البابا الكاثوليكي جريجورى السابع Gregory-VII (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) فى وضع الأصول الأولى للحروب الصليبية التى دعا إليها أربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ م فى خطبته الشهيرة التى ألقاها عقيب انقضاء المجمع الكنسى الذى عقد بكليرمون (Clermont) فى جنوب فرنسا ، وهى الخطبة التى شاهدها ، واستمع إليها جمهور غفير من الفرنسيين تقدمه عدد غير قليل من الأساقفة ، والرهبان ، والسادة الإقطاعيين ناهيك عن الفرسان والعامة الذين عبروا عن تأييدهم لهذه الدعوة بصيحة مدوية تقول Deus Vult أى "الرب يريد" هذه الحرب المقدسة Guerre Sainte .

والحقيقة أن جريجورى السابع (هيلد براند) كان قد اقترح تشكيل حملة عسكرية تحت قيادة البابوية تكون وجهتها " القسطنطينية " Constantnople لمواجهة الأتراك السلاجقة بعد الهزيمة الساحقة التى ألحقوها بالقوات البيزنطية فى معركة مانتزكرت (ملازكرد) ٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١ م الأمر الذى دعا الإمبراطور البيزنطى الكسئوس كومنينوس Alexius-Comnenus (١٠٨١ - ١١١٨ م) إلى طلب الغوث من عدوه جريجورى السابع وجاءت هذه الاستغاثة على هوى البابا الذى وجد فيها تطبيقاً عملياً لنظريته الثورية "الإملاء البابوى" Dictatus papae التى تنادى فى مضمونها بسمو السلطة البابوية على سلطة الأباطرة والملوك فى العالم بأسره .

بمعنى أن البابا جريجورى السابع حاول أن يجعل من استغاثة الإمبراطور البيزنطى فرصة ذهبية عاجلة تفيد منها البابوية أيما فائدة لتحقيق سيادة الكنيسة الكاثوليكية على العالم المسيحى اللاتينى والبيزنطى فى آن واحد بمقتضى السلطة المخولة للبابا من الله باعتباره نائباً للمسيح على الأرض لتتحقق مقولة المسيح لبطرس الرسول :

" طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك أبى الذى

فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيسة وأبواب

الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض

يكون مربوطاً فى السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات "

وحقيقة الأمر أن أراضى الإمبراطورية البيزنطية كانت تدخل ضمن بنود

المشروع الصليبي الاستعماري فى الشرق إلا أن التفاوت الكبير فى المستوى

الحضارى بين الغرب اللاتينى وبيزنطة أوجد حالة من التوجس والخيفة لدى البابا

الكاثوليكي وأمراء الحملة الصليبية الذين كانت أطماعهم الشخصية فى الإمبراطورية

البيزنطية تختمر فى أذهانهم .

ويبدو أن الصراع البابوى - القيصرى ، ومشكلة التقليد العلماني حالت دون

إعداد حملة صليبية فى أى اتجاه من العالم الشرقى فى غضون سنوات ولاية البابا

جريجورى السابع ليورث تركته من الحقد والكراهية للمسلمين للبابا أربان الثانى

الذى كان أكثر اعتدالاً وفطنة فى سياسته تجاه الملوك ولكنه لم يكن أقل من سلفه

شهوة للدعوة الصليبية التى خرجت إلى حيز التنفيذ فى خريف سنة ١٠٩٦ م .

كذلك فإن الأحداث التى جرت فى كانوسا شتاء سنة ١٠٧٧ م تمثل نتائج

مواجهة عصبية بين البابوية والسلطة الزمنية فى ألمانيا، إذ مكث الإمبراطور هنرى

الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٦م) ثلاثة أيام وسط الجليد لتقديم فروض

الطاعة والولاء والتوسلات إلى البابا جريجورى السابع لعله يتوب عليه ويمنحه

العفو الذى كان هنرى فى أشد الحاجة إليه لكى يحتفظ بعرشه حتى وإن كلفه ذلك

تقبيل قدمى البابا وإبداء الندم على غلطته فى حق سيده " جريجورى " حالفاً

بأغلظ الأيمان أن يكون خادماً مخلصاً للبابوية وهو ما لم يستطع عليه صبراً سوى سنة واحدة ليطبق عليه البابا أحد بنود الإملاء البابوي وهو :

That he ought to be allowed to depose Emperors .

" إنه (البابا) يُسمح له بعزل الأباطرة " .

ويبدو أن عزل البابا جريجوري السابع للإمبراطور الألماني هنري الرابع في سنة ١٠٧٧م كان رسالة تهديد صريحة لكل من تسول له نفسه من ملوك غرب أوروبا أن يزعم بطو هامته وسلطانه على هامة وسلطان البابا الذي يحكم بإرادة الرب "يسوع المسيح" وكان عليهم أن يدركوا أن جريجوري السابع قد عقد العزم على تنفيذ برنامج الثوري الذي أعلنه بوضوح شديد يحسد عليه في كتابه الشهير الإملاء البابوي Dictatus papae بعيد ارتقائه العرش البابوي وبالتحديد في سنة ١٠٧٥م ، بل إن قرارات البابا كانت أكثر في شدتها وقسوتها مما هو معلن في هذا البيان من معطيات قانونية تطو بالبابوية إلى أعلى درجات التفوق والسمو على كافة النظم العلمانية الحاكمة في الغرب الأوربي آنذاك .

ومن يقرأ رسالة الإمبراطور هنري الرابع إلى البابا جريجوري السابع

في العام السابق لقرار عزله (سنة ١٠٧٦م) يدرك حجم الغصة والمرارة في نفوس حكام أوروبا بعيد أحداث كاتوسا فبعد أن كان هؤلاء الحكام لا يسمحون للبابا بالتدخل في شئون الحكم والسياسة، صاروا يتوسلون إلى البابا نفسه كي يكونوا عند حسن ظنه بهم، وأفسحوا أمامه الطريق طوعاً أو كرهاً - لكي يمكن لنفسه في الأرض؛ يأمر وينهى كيفما شاء ، ويعقد المعاهدات والمحالقات السياسية ويصدر قرارات الحرب والسلام ، مثلما حدث بين البابا والكونتيسة ماتيلدا دوقة تسكانيا ، وبين البابا والنورمان في صقلية وجنوب إيطاليا الذين قدموا إقطاعياتهم للبابوية

ليصبحوا أفصلاً Vassals للبابا ويصبح البابا سيداً إقطاعياً فى مملكة الأرض التى هى ليست مملكة المسيح .

فأين ما حدث بالفعل من كلمات هنرى الرابع إلى " الراهب الزائف " جريجورى السابع (هيلد براند) والتى كانت أشبه بصرخة أسد جريح : " من هنرى الملك إلى هيلد براند الراهب الزائف وليس البابا أخطأت إذا تصورت أن تواضعنا ضعفاً وتجرات فى مهاجمة السلطة الملكية والإمبراطورية التى أودعنا الله إياها ... وهددت بتجريدنا منها ، وكأننا تسلمناها منك وكان الإمبراطورية والمملكة معقودة بإرادتك وليس بإرادة الله ، ولتعلم أن الرب يسوع قد دعانا لحكم الإمبراطورية لكنه لم يدعك أبداً لتتسلط على الكنيسة .

ولأن هذه الرسالة تحمل فى مضمونها ازدراء للبابا فى شخصه فإن البابا أبى إلا أن يسقط هذا الازدراء الصريح على كنيسة الرب، وعلى بطرس - أمير الرسل - الذى منحه " سلطة الحل والعقد " ومن ثم تكون عقوبة الحرمان البابوى جزاءً وفاقاً على هذا الإمبراطور المارق الذى " احتقر المسيحية وتعالى على طاعتها " . ومن استقراء الروايات حول الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية نلاحظ أن الدعوة الصليبية التى تمحورت حول عدة أهداف قد توارت خلف هدف ظاهرى هو استعادة القدس من المسلمين "الوثنيين" ، وكان من أهم هذه الأهداف غير المعلنة هو "وحدة العالم المسيحى" بمعنى أن يكون المسيحيون جميعاً كاثوليك وهذا يفسر سبب توجيه الدعوة أولاً إلى جنس الفرنج دون سائر الأجناس الأخرى فى الغرب الأوروبى .

وكذلك حرص البابا إربان الثانى أن يستهل خطبته الثورية بنفس الطريقة التى استهل بها سلفه - البابا جريجورى السابع - كتابه "الإملاء البابوى" بوصفه البابا الأوحى للعالم المسيحى .

ويروى لنا فوشيه الشارترى أن "إربان" بدأ خطابه فى المجمع المسكونى- الذى عقد فى أوفرينى بكليرمون وحضره ما يزيد على ثلاثمائة أسقف ومقدمى أديرة - بقوله : "أيها الأخوة الأحباء ... يا خدام الله فى هذه الديار، لقد آتيتكم أنا ، إربان ، الحبر الأعظم ، حبر العالم أجمع بإذن من الله " .

بينما تذكر لنا وثيقة الإملاء البابوى التى نشرها جريجورى السابع قبل عشرين سنة من خطبة إربان الثانى ما يبدو أساساً أيديولوجياً للدعوة البابوية للحملة الصليبية سنة ١٠٩٥ م .

تقول البنود الأولى فى الوثيقة :

- إن الكنيسة الرومانية أسسها الرب وحده .

That the Roman Church was Found by God Alone .

- إن البابا الروماني (الكاثوليكي) هو وحده الذى يمكن ان يوصف بأنه

عالمى بحق .

That the Roman Pontiff alone can by Right be Called Universal.

- إن اسم البابا (الكاثوليكي) هو الاسم الوحيد فى العالم .

That his name is unique in the World .

وهكذا تأثر إربان فى دعوته الصليبية بسلفه جريجورى السابع فى النزوع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية التى تسمو على سلطة ملوك أوربا العلمانيين مثلاً " تسمو الروح فى السماء على الجسد فى الارض " .

وإلى جانب الهدف الرئيسى للحملة الصليبية الأولى وهو إعادة توحيد العالم المسيحى كانت هناك أهداف أخرى تتصل بهيبة البابوية والمناصب الكنسية الأخرى وخضوع الملكية لسلطة البابا وغير ذلك من الأمور التى تدور حول العلاقة

بين الدولة والكنيسة والتي وضع قواعدها جريجورى السابع فى مرسوم الإملاء البابوى وسار على أثرها إربان الثانى الذى توافق فى فكره السياسى مع سلفه إذ تصورا الحملة الصليبية المرتقبة سوف تؤتى أكلها كل حين بإذن البابوية وأنه عما قريب سوف ينتهى الشقاق الحاد بين الكنيسة الغربية (الكاثوليكية) والكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) وكان أن حاول أن يخضع الكنيسة البيزنطية فى جنوب إيطاليا لسيطرة البابوية إلا أن محاولته باءت بالفشل بسبب النزاع الفيليوكى Filioque Controvresy ، أى طبيعة العلاقة بين الأب والابن والروح القدس .

وتبدو هذه الأهداف واضحة فى خطبة إربان الثانى التى تأثر فيها إلى حد كبير بما جاء فى بنود الإملاء البابوى Dictatus papae والتى من بينها :
- انه من حقه وحده أن يستخدم الشارات الإمبراطورية .

That he alone may use the imperial insignia.

- انه يجب على الأمراء تقبيل قدمى البابا وحده .

That all princes should kiss the Feet of the pope alone .

- أن الكنيسة الرومانية لم تخطئ أبداً ولن تخطئ أبداً بشهادة الكتاب المقدس

That the Roman Church has never erred , nor as scripture proclaims, will it err through all eteraity .

وثمة مقولة وردت فى دعوة البابا إربان الثانى تكشف عن مبلغ تأثيره بالفكر الجريجورى الذى تغلغل فى كل أقواله للشعب المسيحى: "صونوا حرية الكنيسة بكل مراتبها من القوى الدنيوية" ومن المعروف أن إربان فى دعوته كان حريصا على تثبيت هيبة السلطة البابوية، والكنيسة الشرقية فى نفوس السادة الإقطاعيين والفرسان الفرنسيين بإيعاءات مستمدة من تعاليم جريجورى السابع

فى الإملاء البابوى والتى يؤكد فيها على سلطة البابا الروحية بقوله : انى امنح (الغفران) ذلك لكل من يذهب مستمداً القوة من السلطة التى وضعها الله فى " .

وفى تصورنا أن الدعوة الصليبية اعتمدت فى ظاهرها على النصوص المقدسة ولكنها فى باطنها أساءت إلى تلك النصوص أو بمعنى آخر حملت هذه النصوص ما لم ينزل الله به من سلطان ، بل إن الباحث المدقق يلاحظ أن أهداف البابوية من الدعوة إلى حملة صليبية توارت على استحياء خلف "هبة بطرس" وليس "هبة قسطنطين" (Donatio Constantini) والتى جعلت الكنيسة اللاتينية فى عليين على سائر كنائس العالم ، وجعلت البابا نائباً للمسيح ناطقاً بلسان "بطرس الرسول" ، ومهيماً على الأباطرة والملوك والأمراء ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ولا راد لأمره ، ومن يعص أمره فسوف يلقى أثاماً ، ويدعو ثبوراً كثيراً مثلما حدث فى أحد المجامع المسكونية سنة ١٠٨٠م عندما أعلن جريجورى السابع بلسان القديس بطرس : " ألا فليدرك العالم اجمع أنه إذا كان بمقدوركم سلطة الربط والحل فى السماء ، فباتكم على الأرض قادرون على أن تعطوا من تشاءون وتنزعونه ممن تشاءون " .

بل هو يعتقد أن الكنيسة الرومانية " لا تخطئ أبداً " ويشهد على ذلك الكتاب المقدس " ... وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السماوات " .

وبموجب هذا يقول جريجورى السابع فى مرسوم عزل هنرى الرابع :

" يا بطرس المقدس

"باسم الرب العظيم والأب والابن والروح القدس ، وبفضل القوة والسلطة اسحب صلاحيات الحكم فى كل مملكة الألمان وفى ايطاليا من هنرى الملك ابن هنرى الإمبراطور ،....."

وهكذا فعل إربان الثانى فى دعوته الصليبية إذ حاول ان يمزج " النظرية البطرسية " " بالنظرية الثيوقراطية " مع أن بطرس لم يكن ملكاً أو إمبراطوراً ، ولم يكن يوماً صاحب نظرية سياسية مما يجعل هذه المقولات وغيرها محل تساؤل ومثار شك فى كل ما صدر عن البابوية الكاثوليكية من تعاليم وإملاءات اتسمت فى مجملها بروح الجهل والتعصب ، والتي بدت آثارها السلبية واضحة فى كتابات المؤرخين المعاصرين من الرهبان أمثال روبير الراهب ، والمؤرخ المجهول وجيوبرت النوجنتى وبلدريك الدوللى وغيرهم .

وهذا التأثير الجريجورى فى الدعوة يبدو واضحاً فى عدة أمور نذكرها على النحو التالى : الأمر الأول : أن مجمع كليرمون الذى عقد فى سنة ١٠٩٥م كان أشبه بمجلس حرب وأن البابا إربان الثانى رأس هذا المجمع بوصفه زعيماً سياسياً أو قائداً عسكرياً يدل على ذلك أن البابا حضر إلى هذا المجلس وفى ذهنه أن يلتقى بكبار السادة الإقطاعيين فى المناطق المختلفة دون غيرهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى ، بل انه قبيل وصوله إلى كليرمون كان يعلم بالفعل أن واحداً على الأقل من كبار الأمراء الفرنسيين وهو ريمون الصانجيلي Raymond of Stgiles كونت تولوز سوف يحمل شارة الصليب ومعه مجموعة أخرى من الأمراء الإقطاعيين من أمثال روبير كورتوز Robert Chrthose دوق نورماندى وجودفرى دوق اللورين وغيرهم من السادة الإقطاعيين الفرنسيين .

الأمر الثانى : أن البابا إربان الثانى " حاكم روما " حسب تعبير المؤرخ المعاصر فوشيه الشارترى جمع الأساقفة وعددهم ٣١٠ للتشاور أساساً حول قرار " إعلان حرب " ضد " شعب متوحش " من الأتراك الذين احتلوا المناطق الداخلية من الأراضى البيزنطية مثلما هو معلن فى خطبته البليغة إلى الجموع المحتشدة

فى ساحة أوفرينى بكيرمون ، ومثلما كان يخطط سلفه جريجورى لشن حملة صليبية ، إلا أن كليهما كان يفكران فى شىء واحد وهو خضوع الكنيسة الشرقية البيزنطية للكنيسة الغربية اللاتينية وهو ما يشير إليه فوشيه الشارترى بقوله :

" عندما سمع أربان أن الأتراك قد احتلوا المناطق الداخلية من أراضى بيزنطية ، وأن المسيحيين خضعوا لشعب متوحش هدام ، هزته مشاعر التقى والورع ، واجتاز مدفوعاً بمحبة الله الجبال هابطاً إلى أراضى فرنسا ... وفى اليوم المحدد التأم الجمع حول البابا إربان فألقى فيهم خطاباً بليغاً تناول فيه الغرض الذى دعا من أجله وبصوت مفعم بالأسى أخبرهم عن عذاب الكنيسة وألقى موعظة بليغة عن العواصف الهوجاء التى تجتاح العالم الذى انحط فيه مستوى الديانة المسيحية.

الأمر الثالث: أن الجيوش الإقطاعية الفرنسية كانت هى المعنية - عن عمد - من جانب البابا بالدعوة الصليبية دون غيرها من الجيوش الأوروبية مما يكشف عن عنصرية الدعوة منذ البداية - فما أن غربت شمس القرن الحادى عشر حتى كانت حدود الدوقيات والكونتيات الفرنسية قد صارت حدوداً ثابتة ونشأ نوع من التوازن البدائى بينها ، ومن ثم لم يكن هناك فرصة بديلة لدى كبار السادة الإقطاعيين الفرنسيين للغزو داخل أراضى الوطن مما جعلهم يتوقون إلى تحقيق ذلك خارج فرنسا ، كما أن تزايد عدد الفرسان الفرنسيين الذين لا يملكون أراضى أخرى أربان الثانى بأن يداعب خيالهم بأراضى الشرق " التى تفيض باللبن والعسل " بل إن البابا عين أسقفاً فرنسياً "أديمار لابوى" ليكون قائداً اسماً للحملة المرتقبة وكان أديمار مقرباً من جريجورى السابع وموالياً لفكره الكولونى .

الأمر الرابع : أن ما فعله إربان الثانى فى مجمع كليرمون كان سابقة فى تاريخ المجامع المسكونية إذ سمح فى الجلسة الأخيرة للعلمانيين أن يستمعوا إلى دعوته الصليبية التى أطلقها على خلفية حركة الإصلاح الجريجورى ضد الفساد الداخلى

والأعداء المسلمين في الشرق الإسلامي ويذكر لنا فوشيه وغيره من المؤرخين الذين شاهدوا واستمعوا لخطبة إربان الثاني أنه فور انتهاء البابا من خطبته تقدم العديد من السادة الإقطاعيين والفرسان لأخذ شارة الصليب ومزقت العباءات الحمراء إلى شرائط خيطة على هيئة صلبان لتوضع فوق صدور الفرسان الفرنسيين " الفرنجة " .

الأمر الخامس: أن هذه الدعوة الصليبية التي أعلن عنها إربان جاءت ضربة قاصمة للملوك والأباطرة الألمان الذين حرموا من الاشتراك في هذه الحملة أو الدعوة إليها خاصة أن البابا كان يعلم سلفاً أن الألمان لن يلبوا دعوته بعد أن أعلنوا حالة العصيان المدني لكل ما يصدر عن البابوية من مراسيم وقرارات تمثل تدخلاً في شئون الحكم العلماني ، بل إن هؤلاء الحكام الألمان كشفوا في زمن إربان وسلفه جريجوري عن زيف الدعوة الصليبية واعتبروها نوعاً من " العنف تحت رداء الدين " وهي مضمون السياسة التي انتهجها جريجوري السابع وتتبع آثارها إربان الثاني باسم الديانة المسيحية الكاثوليكية.

" يا له من عار إذا ما قام جنس مثل هذا - المسلمين - خسيس منحل تستعبده الشياطين بالتغلب على شعب يتحلى بالإيمان بالرب العظيم ويزهو ويتألق باسم المسيح ، يا لها من تهم ستوجه إليكم من الرب إذا لم تساعدوا - المسيحيين الشرقيين - أولئك الذين يعدون مثلكم من أتباع الديانة المسيحية .

وكي نتبين حجم التناقض في الفكر البابوي الصليبي علينا أن نقرأ ما جاء في خطاب زعماء الحملة الصليبية الأولى في ١١/٩/١٠٩٨م بعد سقوط أنطاكية والذين يصفون فيه المسيحيين الشرقيين بأنهم " هراقة " وأن البابا بقوته وسلطانه يستطيع " تدمير كل الهرطقات والقضاء عليها " !

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى طبيعة العلاقة بين بعض بنود الإملاء البابوى والتشكيل القيادى للحملة الصليبية الأولى ، ذلك التشكيل الذى تأسس على فكرة الحرب المقدسة **Guerre Sainte** التى نادى بها جريجورى السابع لتبرير فكرة الحرب ضد المسلمين ، ومن ثم كان لزاماً على إربان الثانى فى دعوته أن يضيف هذه الفكرة الجريجورية على الحملة العسكرية المرتقبة بحيث يصبح المشاركون فيها هم " جنود المسيح " وأن " كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له كل خطاياہ " ، وأن تسند قيادة هذا الجيش لمندوب البابا الذى يسمو فى درجته الكنسية - بموجب ذلك - على جميع الأساقفة فى أنحاء العالم فضلاً عن حرمان حكام الغرب الأوربى الذين صدرت ضدهم قرارات الحرمان من المشاركة فى هذه الحرب المقدسة التى دعا إليها البابا باسم المسيح تصديقاً لما ورد فى الإملاء البابوى :

" انه بين أشياء أخرى لا ينبغي لنا أن نبقى فى المنزل نفسه مع أولئك الذين أصدر البابا قرار الحرمان ضدهم " .

وفى هذا المعنى يكتب المؤرخ المجهول :

" كانت هناك حركة هائلة تعمل فى قلوب الناس فى شتى أنحاء الأرض الفرنجية بحيث إذا كان ثمة رجل بكامل قلبه وعقله مستعداً حقاً لأن يتبع الرب وأن يحمل الصليب خلفه بإيمان ، فإن مثل هذا الرجل لم يكن قادراً على أن يتأخر فى السير على طريق الضريح المقدس بأسرع ما يمكن لأن البابا نفسه عبر جبال الألب بأسرع ما يستطيع ومعه كبار أساقفته ، والأساقفة ، ومقدمو الأديرة والقساوسة وبدأ يلقي عدة خطب فصيحة قال فيها : إذا كان هناك رجل يبتغى إنقاذ روحه فيجب ألا يتردد فى أن يأخذ طريق الرب " .

وكان بين الحاضرين أسقف " لابوى " واسمه اديمار وهو الذى أصبح فيما بعد " الرئيس الروحى " الذى قاد بحكمته وحسن تدبيره جيش الرب وهكذا يبدو التأثير

المضوى للمرسوم البابوى الجريجورى الذى يضع البابوات فى المرتبة العليا لكافة الرتب الحاكمة فى الغرب الأوربى .

وتبدو إحياءات السمو البابوى واضحة فى أحداث الحملة الصليبية الأولى والتى قامت تحت الشعار الدينى المسيحى من خلال ما يرويه لنا فوشيه الشارترى متأثراً هو الآخر- إلى حد كبير بالرؤية الألفية التى سادت الغرب الاوربى فى غضون القرن الحادى عشر وباركتها الكنيسة الكاثوليكية إلى حد أن المسيحيين هناك اعتبروا الحج إلى القدس تتويجاً لأعمال الإنسان فى الحياة الدنيا ، وبرهاناً على صحة الأفكار، والرؤى، والقيم ، والمثل التى جعلت الحركة الصليبية أمراً واقعاً .

" لقد ظهر الرب لتركى معين (أرمنى مسلم) كانت قد كتبت عليه بركة الله وقال له : " انهض أيها النائم أننى أمرك أن ترجع هذه المدينة للمسيحيين ، استغرب الرجل ذلك ولكنه حفظ أمر الرؤيا سراً ، ظهر الرب له ثانياً وقال " ارجع هذه المدينة للمسيحيين لأننى الذى أمر بذلك أنا يسوع المسيح، احتار الرجل فيما يفعل وذهب إلى سيده حاكم أنطاكية واعلمه بأمر الرؤيا فأجابه قائلاً: أتريد أيها الغبى أن تطيع شعباً ؟ فعاد الرجل ولزم الصمت ، ظهر الرب له مرة أخرى وقال لم لم تفعل ما أمرتك به ؟ لا تتردد لأننى أنا الذى أمر بهذا ، أنا رب الجميع " فلما زال الشك من نفسه بدأ الرجل يخطط سراً مع رجالنا فى مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة ،....".

كما يروى لنا فوشيه انه بعد ١١ يوماً من سقوط أنطاكية ٣ يونيو ١٠٩٨م وجد أحد الفلاحين ويدعى "بارتلميو" حربة فى حفرة تحت كنيسة القديس بطرس وأشاع أنها ذات الحربة التى طعن بها يسوع المسيح فى جنبه الأيمن كما ورد فى الإنجيل ، وادعى أن الحوارى أندراوس هو الذى أوحى له بذلك وأنه أبلغ الأسقف اديمار بذلك ثم الكونت ريمون .

" ولم يصدق الأسقف هذه القصة " .

ولسنا هنا بصدد البحث فى تفاصيل هذه الرواية الكاذبة - بشهادة فوشيه - وإنما لبيان حقيقة بالغة الأهمية وهى أن البابوية الكولونية كانت تداوى أخطاء وتجاوزات المذاهب الكنسية الأخرى بأخطاء وتجاوزات أفدح منها ومن ثن تضاربت مثالية التعاليم البابوية مع واقع الأحداث الشائنة والتي حاولت أقلام المؤرخين المعاصرين التستر عليها بإقحام النصوص الإنجيلية ، والأقاويل المغلوطة فى رواياتهم المدونة فى اعقاب سقوط بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، أى بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى ؟!.

لقد شاع بين الناس فى الغرب الأوروبى - عامة - وبين المشاركين فى الحملة الصليبية - خاصة - مفهوم عقيدى سرى بينهم سريان الدم فى العروق ألا وهو " سلطان البابا فى الربط والحل فى السماء والأرض " وأن البابا - أو من ينوب عنه - هو الناطق بلسان القديس بطرس ، وكل كلمة قالها أو كتبها لبنى آدم هى بلسان " بطرس " وكل كلمة يتلقاها أو يسمعا من بنى آدم تصل إلى بطرس نفسه الذى يستمد منه البابا مداد كلماته لسائر البشر، ولم لا ؟ ألم يقل جريجورى السابع فى أحد المجامع المسكونية ما نصه :

" ألا قليدرك العالم أجمع ، أنه إذا كان بمقدورك (الأكليروس) سلطة الربط والحل فى السماء فإتكم على الأرض قادرون على أن تعطوا الملك لمن تشاءون وتنزعون الملك عن تشاءون " .

ولذلك لم يكن سهلاً على الملوك الألمان بعد أن حملوا لقب " أباطرة الرومان " وارتبطوا فى مصالحهم بالبابوية فى ايطاليا - أن يرتضوا هذا الصلف والغرور من جانب البابا الرومانى ولذلك اختاروا لأنفسهم بابوية موازية لبابوية روما مثلما حدث بعد الخلاف الحاد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع

إذ انحاز الأول إلى "جيبيرت" ليكون البابا الموازي للبابا جريجورى السابع تحت اسم كليمنت الثالث فى الفترة من سنة ١٠٨٠ إلى سنة ١١٠٠ م .

ويصف فوشيه هذا الموقف الألمانى المضاد بقوله :

" أما الشيطان الذى يسعى دائماً وأبداً لتحطيم الإنسان ويجول فى الأرض كالأسد الباحث عن فريسة يلتهمها ، فقد أقام ليبث الفوضى بين الناس ، منافساً معيناً للبابا إربان ويدعى جيبيرت وقد بدا هذا الرجل مدفوعاً بالعجرفة ، ومدعوماً بصفاقة إمبراطور بافاريا (هنرى الرابع) سابق الذكر يغتصب المركز البابوى بينما تمسك جريجورى المعروف بهيلد براند وهو البابا الذى سبق إربان بمركزه فى الكنيسة حتى أنه منع جريجورى نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس ".
وهنا لابد أن نشير إلى طبيعة العلاقة بين هذه الرواية المشحونة بالكراهية والضعيفة من جانب المؤرخ الكنسى المعاصر "فوشيه" وقصة اكتشاف الحربة المقدسة فى حفرة بأرض تحت كنيسة القديس بطرس بأنطاكية حيث كانت الحربة مدفونة فى كنيسة بطرس المبارك أمير الحواريين الذى يستمد منه البابا إربان الثانى سلطته الشرعية وقوته الروحية .

ومن استقراء المرسوم البابوى لجريجورى السابع ، وخطبة الدعوة الصليبية لإربان الثانى نستشف حقيقة المآرب السياسية - اللادينية - لكلاهما إذ كان الهدف الرئيس للمشروع الصليبي هو فرض سيطرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما على سائر الكنائس فى الشرق وإنهاء الشقاق بين الكنيستين الغربية فى روما والشرقية فى القسطنطينية كذلك استخدمت البابوية الجريجورية الإربانية المشروع الصليبي كأداة من أدوات السياسة الداخلية أثناء صراع الكنيسة مع القوى الكنسية الأخرى والقوى العلمانية فى المجتمع الأوربي بما يحقق السيادة العليا لبابا روما

وهو الصراع الذى أورثه جريجورى السابع لخلفه إربان الثانى بحيث يمكن القول أن مصطلح البابوية الدنيوية كانت خيراً لها وأبقى من مصالحها مع " يسوع " الرب . ومن يقرأ رواية فوشيه الشارترى عن الخلاف بين البابا إربان "بابا روما" وجيبرت "بابا بافاريا" يلمح البعد السياسى فى هذا الخلاف المتسربل برداء العقيدة فضلاً عن حالة التعالى والغطرسة التى تفوح بين سطور الرواية والتى تعد امتداداً لنفس الحالة فى المرسوم البابوى الجريجورى الذى يضع البابا فى روما - فقط سيداً للعالم المسيحى ونائباً للمسيح على الأرض لا يسأله أحد من أرباب السلطتين الدينية والزمنية عما يقول أو يفعل وهو وحده " لا ينبغى أن ينطق اسم غير اسمه فى الكنائس وهو - وحده " لا ينبغى لأحد أن يلغى أى حكم صادر منه " و"أنه هو نفسه لا يحاكمه أحد" .

" ولكن كان واضحاً لذوى العقل من الرجال أن إربان كان الأفضل من (جيبرت) فالحق أن الأفضل هو من يضبط أعصابه وعواطفه ويحكمها كما لو كانت عدوته ، كان جيبرت بصفته أسقف مدينة رافنا واسع الثراء وكان يختال فى مظاهر البذخ والترف ، ومن العجيب أن هذه الثروات لم تشف غليله وهل يعقل أن يعتبر نموذجاً للحياة المثالية من يعشق المظاهر ويتناول بجرأة على اغتصاب عرش سلطة الله ؟ الحق أن هذا المركز يجب ألا ينتزع بالقوة " .

ولعل الباحث يتساءل : إلى من من الباباوات يوجه فوشيه الشارترى هذا النقد؟ إلى بابا روما أم إلى بابا بافاريا ؟

لاشك إذن أن الدعوة الصليبية جاءت إفرازاً حتمياً لنظرية الإملاء البابوى وهى حالة من الاستبداد السياسى للبابوية الجريجورية بدأت مرحلتها الأولى داخل المجتمع الأوروبى فلما طفح الكيل ، وبلغ سيل الاستبداد الزبى بدأت المرحلة الثانية خارج الغرب الأوروبى وبالتحديد فى الشرق العربى الإسلامى .

ومما يؤكد اقتفاء إربان الثانى لآثار الحقد والكراهية فى مرسوم الإملاء البابوى الجريجورى ما دأب عليه قبيل قيام الحملة الصليبية الأولى من مخاطبة العديد من الأمراء الأوربيين من خلف ساداتهم من الملوك الإقطاعيين ، فضلاً عن إرساله لعدد من الأساقفة إلى مناطق متفرقة خارج فرنسا لدعوة هؤلاء الأمراء ومن بعدهم النبلاء والفرسان لموازرتة فى حملته المقدسة الساعية إلى إنقاذ إخوانهم المسيحيين الشرقيين من المسلمين (الكفار) الذين يسومونهم سوء العذاب وينتهكون حرمة الأماكن المقدسة فى أرض السيد المسيح .

ومن بين الرسائل التى بعث بها إربان الثانى إلى هؤلاء الأمراء والنبلاء والفرسان تلك الرسالة التى بعث بها الى " كل المؤمنين فى الفلاندرز " فى ديسمبر ١٠٩٥م والتى يقول فيها : " إننا نعتقد أيها الأخوة أنكم علمتم منذ زمن طويل من مصادر عديدة الأخبار المحزنة عن أن البرابرة (المسلمين) فى هياحهم قد غزوا ونهبوا كنائس الرب فى الأقاليم الشرقية والأسوأ من ذلك أنهم استولوا على مدينة الرب المقدسة التى ازدانت بعذابه وقيامته وأنهم باعوا كنائسها فى عبودية مقبلة ، وإذا فكرنا بإخلاص فى هذه المصيبة وحزننا بسببها فإننا زرنا بلاد الغال وحرصنا السادة والرعايا بحماسة فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية ، " .

وكذلك الرسالة التى بعث بها إلى أتباعه فى بولونيا " أحبباء الرب " فى ١٥ سبتمبر ١٠٩٦م والتى يعزف فيها على نفس الوتر " الدينى " بأسلوب يدغدغ أحاسيس السامعين ، ويمس شغاف قلوب العاشقين للسيد المسيح عليه السلام .

" لأن المسيح نفسه قال عن هذا الشخص الأسقف أن من يسمعه يسمعنى ، وقد سمعنا أن كثيرين منكم قد هاجمهم الشوق للذهاب إلى أورشليم القدس " (فلسطين).

وبمقارنة هذه النصوص وغيرها بخطبة البابا إربان الثانى فى كليرمون نلاحظ أنها جميعاً تسير على التوازي مع الفكر السياسى الجريجورى الذى استهل ولايته الدينية بتأكيد السيادة الإقطاعية للبابوية على سائر الملوك والأمراء والنبلاء بفضل ورحمة من الرب .

" إن البابا الرومانى إذا تمت رسامته بشكل قاتونى ، يكون قد صار قديساً دونما شك وذلك بفضل سان بطرس " .

بل إن الأفكار والخواطر التى تحويها تلك الرسائل تكاد أن تكون مناظرة لنفس الأفكار والخواطر التى وردت فى الرسائل التى بعث بها البابا جريجورى السابع إلى الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان وعامة الناس فى الغرب الأوروبى يناشدهم فيها باسم الرب الذى هو نائبه أن يهبوا جميعاً أو أشتاتاً للدفاع عن المسيحيين فى الشرق الذى يتعرضون للاضطهاد والعذاب من جانب أعدائهم المسلمين "الكفار" .

وفى هذا يقول :

" ، ومن ثم فنحن نناشدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح وسلطة القديس بطرس أمير الرسل أن تتحركوا بكل العطف إزاء جراح ودماء إخوانكم لإنقاذهم مما يقاسونه ، ... " .

ويضيف فى رسالة أخرى إلى الملك هنرى الرابع :

" إن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من الاضطهاد والذبح من جانب المسلمين الذين يذبحونهم كما تُذبح الخراف ، وأنهم كتبوا إلى مستغيثين ، ولتعلم أن هناك خمسين ألف رجل على أهبة الاستعداد للقتال تحت قيادتى ، وإنى اقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا سيرهم حتى قبر المسيح " .

وإذا علمنا أن هذه الدعوة الصليبية التى أطلقها جريجورى السابع فى سنة ١٠٧٤م وأعقبها بمرسومه البابوى فى سنة ١٠٧٥م كانت المقدمة الأيديولوجية للحروب الصليبية أدركنا بمنتهى البساطة أن دعوة البابا إربان الثانى لقيام أول حملة استعمارية باسم الدين المسيحى كانت تطبيقاً عملياً للمرسوم البابوى الجريجورى الذى تأسس على فكرة السيادة الإقطاعية للبابا الكاثولىكى ، وهى الفكرة التى خرجت إلى حيز التنفيذ فى الغرب الأوروبى زمن جريجورى السابع فى إطار الصراع بينه وبين الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع ، ذلك الصراع الذى تسربل برداء التقليد العلمانى ، وأراد البابا بعد النصر الذى حققه على أعدائه المسيحيين الغربيين أن ينقل هذا الصراع من المستوى " المحلى " إلى المستوى " العالمى " تحت رداء السيد المسيح وهو ما لم يستطع أن ينفذه عملياً طيلة عشر سنوات قضائها فى حروب داخلية ضد الملوك والحكام العلمانيين .

وقد لا نبالغ إذ قلنا أن الدعوة الصليبية بدأت بالفعل فى تطبيقات المرسوم البابوى الجريجورى فى الغرب الأوروبى الكاثولىكى ثم فى الشرق البيزنطى الأرثوذكسى .

لكى تنتهى بكل تداعياتها فى الشرق العربى / الإسلامى مما يكشف عن الدوافع الحقيقية للحركة الصليبية العالمية .

ويرى ميشيل بالار Michel Balard أن فكرة الحرب ضد المسلمين (الكفار) وتبرير استخدام العنف لحماية الكنيسة فى إطار مشروع عسكري منظم تبدأ منذ بداية بابوية ليو التاسع Leu ix (١٠٤٩ - ١٠٥٤م) مروراً بالبابا اسكندر الثانى Alexander II (١٠٦١ - ١٠٧٣م) وتنتهى عند جريجورى السابع Gregeory VII (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) الذى جمع خلاصة فقرات سان أوغسطين عن الحرب العادلة التى كانت محدودة التطبيق من جانب من سبقوه - لتبرير تشكيل

قوة مسلحة من فرسان القديس بطرس للحرب ضد المسلمين " البرابرة " في الشرق ، ولم يكن صعباً على البابا حينئذ بوصفه نائباً للمسيح أن يحول مفهوم الخدمة العسكرية من تراث القديس بطرس إلى تراث المسيح وتوجيه استخدام السلاح داخل الغرب الأوربي إلى مسرح العمليات في الشرق الإسلامي .

ومن الوهم تصور خطبة البابا إربان الثاني في كليرمون بعد عقد مجمعه في أوفرنيا في إطار مصالح المسيحيين في الشرق والتي تعد هدفاً ثانوياً للحملات الصليبية إذ من غير المعقول أن البابا إربان الثاني - الذي تربى في كنف أستاذه جريجوري السابع منذ أن كان راهباً في كلوني سنة ١٠٧٣ م ، وحتى قيامه برحلة الإصلاح الكنسي التي استمرت سنة كاملة (أغسطس ١٠٩٥ - أغسطس ١٠٩٦ م) عقد خلالها عدة مجامع ، أثمرت توحيد الكنائس والمجتمع العلماني حول شخصه - كان يتطلع إلى شيء سوى التطبيق الكامل لبرنامج الإصلاح الكنسي الذي حدده سلفه - جريجوري السابع - ذلك البرنامج الذي تبدو ملامحه واضحة في مرسوم الإملاء البابوي سنة ١٠٧٥ م ، وخطبة البابا في سنة ١٠٩٥ م والتي تتعلق أساساً بوحدة الكنيسة وسلطة البابوية الكاثوليكية على سائر الكنائس في أنحاء العالم والتي كانت بدايتها مملكة فرنسا مما يعني أن دعوة البابا لحملة صليبية على الشرق لم تكن في حقيقة الأمر من أجل إنقاذ قبر المسيح وتحرير القدس بقدر كونها دعوة للتوسع المسيحي الكاثوليكي والخروج من حيز الصراع الكنسي الإقليمي إلى مناطق واسعة من أنحاء العالم .

ولعل القس فوشيه الشارترى قد انضم إلى جيش بلدوين الأول في آسيا الصغرى وظل بصحبته قرابة عامين في إدارة الرها (١٠٩٨ - ١١٠٠ م) دون أن يذكر لنا شيئاً في مذكراته عن تحرير القبر المقدس مما يدفعنا إلى فهم مسألة تحرير الكنائس الشرقية في إطار الصراع بين المسيحيين أنفسهم على " تركة " المسيح؟! .

بمعنى أن إربان الثانى حين طرح دعوته فى " كليرمون " كان يستهدف من المشروع الصليبي شيئاً مختلفاً عما يستهدفه النبلاء والفرسان الإقطاعيون ، أما جماهير العامة من الفقراء والمعدمين وأشباههم من الفلاحين وسكان المدن الناشئة فكانت الدعوة الصليبية بالنسبة لهم تعنى شيئاً مختلفاً عما دعت إليه البابوية وما فهمه الفرسان الإقطاعيون ، بل إن دوافع هؤلاء العامة كانت تتناقض تماماً مع أهداف الكنيسة وطبقة النبلاء ، فبينما رأت هذه الطبقة الفوقية - الدينية والعلمانية - فى هذه الحملة الصليبية فرصة نادرة لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى الشرق رأت الطبقة التحتية من العامة والفلاحين فى ذات الحملة الصليبية فرصة نادرة للهروب من عبودية هذه الطبقة الإقطاعية المستغلة فى إطار ظروفهم المعيشية المتردية والتي بلغت حد المجاعة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى.

وبالرغم من أن خطبة البابا إربان الثانى كانت موجهة أساساً إلى الجيوش الإقطاعية دون غيرها من الشرائح الاجتماعية الأخرى فإن المصادر التاريخية تخبرنا أن الاستجابة الشعبية لخطبة إربان فاقت كل التوقعات وأن كلماته البلاغية سرت فى نفوس الجماهير سريان النار فى الهشيم ، فقد كان المناخ الدينى والنفسى والاجتماعى ملائماً تماماً لترجيع صدى هذه الكلمات فى خيال الكادحين والباتسين الذين راودتهم أحلام الخلاص الروحى سعياً لحياة أخرى هانئة مع " المسيح " إن هم قاتلوا وقتلوا فى سبيله ، فإن لم تتحقق لهم إحدى الحسنيين فهيناً لهم الحسنى الأخرى وهى الحياة الدنيوية الرغدة فى ضياع الشرق حيث الماء والخضرة والوجه الحسن أو " الأرض التى تفيض باللبن والعسل " كما ورد فى الكتاب المقدس :

" لأنه حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم " .

ويطالعنا المؤرخ المجهول بكثير من العبارات العاطفية المقتبسة من الكتاب المقدس والتي وردت في خطبة إربان الثانى ووجدت أذناً صاغية من العامة والدهماء الذين هبوا بمجرد سماعها معلنين إتباعهم لآثار خطي المسيح الذى وعدهم بحياة الخلد فى السماء .

" لأن أجركم عظيم فى السموات " .

. وقراءة متأنية لبعض النصوص الأصلية للخطاب البابوى فى كليرمون فى سنة ١٠٩٥م تكشف عن فكرة محورية فى الخطبة وهى "عولمة" الدعوة الصليبية وتوسيع هيمنة الكنيسة الكاثوليكية لتصبح بابوية روما صاحبة الحق فى السيادة على هذا العالم بشقيه الدينى والدنيوى وهى نفس الفكرة المحورية فى مرسوم الإملاء البابوى الذى صدر فى سنة ١٠٧٥م عن البابا جريجورى السابع ويبدو أن فوشيه الشارترى فى كتابه عن الحملة الصليبية الأولى والتي يحمل عنوان "التاريخ الأورشليمى " *Historia Hierosalymitana* قد حاول أن يكرس الأفكار الواردة فى برنامج الإصلاح الكنسى سالف الذكر فى صياغة بنود الخطاب البابوى إلا أن نجاح الحملة الأولى فى تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م جعله يؤلف روايته - التى صارت المصدر المحلى لكل مؤرخى الحملات الصليبية - على أساس أنها " حملة مقدسة " أو "حج مسلح " أو " حملة جيش المسيح " التى يجرى تدشينها بمبادرة بابوية خالصة مستمدة من أوامر الرب .

بل إن الباحث فى التطور العسكرى للدعوة الصليبية فى المراحل التالية لاحتلال القدس والتي استجاب لها ملوك وأمراء الغرب الأوروبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يلاحظ حجم الدوافع المتداخلة فى الفكر البابوى والتي تبلورت جميعها فى اليوم الأخير لانعقاد مجمع كليرمون (٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م) فى شكل

دعوة صريحة لكل الفرسان والمؤمنين بالمسيح بحمل السلاح والتوجه إلى الشرق لإنقاذ مملكة الرب في القدس ، والتي هو مسئول عنها أي البابا بصفته " الحبر الأعظم " الذي يحكم هذا العالم بتفويض من القديس بطرس أول البابوات الشرعيين! " ... إننى أخاطب الحاضرين وأعلن للغائبين أن يسوع المسيح يأمر بما يلي: كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له كل خطاياہ " .

ولكن الباحث يتساءل هل هذه الحملة التكفيرية التي جاءت إلى الشرق باسم المسيح وأنت إلى قيام مملكة الرب في اورشليم " القدس " كانت تعبيراً حقيقياً عن تجربة يسوع المسيح ؟

لاشك أن مدونى هذه النصوص (فوشيه - المؤرخ المجهول - روبير جيوبرت) أدركوا ذلك بداهة فحاولوا - بعد نجاح الحملة الأولى - أن ينسبوا الدعوة الصليبية في ظاهرها " الجميل " إلى البابوية وفي باطنها " القبيح " إلى العلمانية ! والحقيقة - عندنا - أن الفكر البابوى كان صليبياً منذ اللحظة الأولى التى أطلق فيها جريجورى السابع دعوته لقيام حملة صليبية لإنقاذ مسيحى الشرق والتي تبناها - عملياً - خلفه إربان الثانى إلا أن جريجورى السابع أعرض عن " صليبيته " ضد الشرق لأجل غير مسمى كى يتفرغ لشن حرب صليبية مبكرة فى الغرب الأوروبى ضد الحكام العثمانيين وأرباب السلطة الزمنية على مدى عشر سنوات (١٠٧٥ - ١٠٨٥ م) أى منذ إصداره لمرسومه الشهير " الإملاء البابوى " الذى تضمن حق البابا " حق البابا فى عزل الأباطرة " ثم إعلانه الحرب صراحة على كل معارضيہ من الكنسيين أو العثمانيين إذ يقول :

" ليس بكاثوليكي كل من يخالف الكنيسة الرومانية ولن ينعم بالسلام وأن الكنيسة الرومانية لم ولن تخطئ أبداً " .

وهكذا كان التحول من حرب صليبية " مقدسة " فى اتجاه الشرق يقودها البابا إلى حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوربى يدير عملياتها ضد الملوك هى الركيزة الأساسية التى استند عليها البابوية لتحقيق مآربها السياسية والتى تتمحور حول السيادة على ملوك أوربا وتوحيد كنيسة روما والقسطنطينية باسم الدفاع عن مسألة المسيحيين الشرقيين وهى السياسة التى وضع قواعدها جريجورى السابع وأكمل بناءها من بعده أربان الثانى بحذق ومهارة عندما سحب البساط من تحت أقدام الملوك ونزع مخالب قوتهم المتمثلة فى جيوش الأمراء وبذلك صار ملوك الغرب بلا ثروة مادية أو بشرية وبالتالي بلا مخالب أو أنياب .

وفى تصورنا أن هذه الفكر الصليبي التوافقى بين جريجورى السابع وتلميذه إربان الثانى لا يمكن أن ينسب مطلقاً لزعامة روحية بقدر ما ينتسب إلى زعامة دنيوية تريد ممارسة كافة شئون السلطة انزمنية وسلبها مصدر قوتها ألا وهى السيادة الإقطاعية وإن اقتضى ذلك " عزل الأباطرة " جميعاً ليكون للبابا وحده " الاسم العالمى الوحيد فى العالم " غرباً وشرقاً .

ومن هنا قد يحالفنا الصواب إذ قلنا : إن دعوة أربان الثانى فى كليرمون فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م كانت - حصرياً - على الأمراء دون الملوك لترسيخ فكرة السلطة الروحية والزمنية المطلقة للبابوية ولم لا ؟

ألم يعلن أستاذه ذلك فى مرسومه الذى يجعل للبابا حق عزل الأباطرة ، واستخدام شارات الإمبراطورية والدعاء له وحده فى كل كنائس العالم تحت "الاسم الكاثوليكي" .

ومما يؤكد رؤيتنا لجوهر المشروع الصليبي الذى دعا إليه إربان الثانى وتهياً إليه النبلاء والفرسان الإقطاعيون بوصفه الحل الأمثل لطموحاتهم السياسية والاقتصادية فى عالم الشرق الساحر دون النظر لآى ضوابط دينية أو أخلاقية

تحول دون تحقيقه ، ما حدث فى سبتمبر سنة ١٠٩٨م بعد استيلاء الجيوش الصليبية على أنطاكية إذ ارتأى قادة الحملة وعلى رأسهم " بوهيموند " أن تكون هذه المدينة مقراً لكرسى البابوية ، ومركزاً للقيادة الصليبية صوب القدس وأن تطلب ذلك التضحية بمصالح المسيحيين الشرقيين والبيزنطيين " الأرثوذكس " باعتبارهم " هراطقة " لا يلتزمون بتعاليم البابا الكاثوليكي جريجورى السابع حسبما جاء فى مرسومه الإملانى الذى سار على هديه البابا إربان الثانى .

" إن الكنيسة الرومانية أسسها الرب وحده ، وأن البابا الرومانى هو وحده الذى يمكن أن يوصف بأنه عالمى بحق ، وأنه لا ينبغى أن ينطق اسم غير اسمه فى الكنائس ، ... " .

" ... ، ومن ثم ، فماذا فى هذا العالم يمكن أن يكون صواباً من أنك أبو ورأس العقيدة المسيحية ، .. " .

يقول زعماء الحملة الصليبية فى خطابهم إلى البابا إربان الثانى بعد الاستيلاء على أنطاكية ووفاء " أديمار " مندوب البابا معبرين عن دوافعهم الحقيقية التى أرسى دعائمها جريجورى السابع ومن بعده إربان الثانى :

" إلى السيد المجل البابا إربان من بوهيموند ، وريمون كونت سان جيل والدوق جودفرى أمير اللورين ، وكونت روبرت أمير نورماندى ، وروبرت كونت الفلاندرز ، والكونت إيستاس البولونى ، تحياتنا ، ومثلما يبعث الأبناء إلى أبيهم الروحى ، نعلن أننا خدام مخلصون ورعايا حقيقيون فى حب المسيح ، ونحن نرغب أن نحيطكم علماً أنه بفضل رحمة الرب العظيمة وبفضل مساعدته الرائعة استطعنا أن نستولى على مدينة أنطاكية بحيث أن الأتراك الذين سببوا كثيراً من العار لسيدنا يسوع المسيح وقعوا ضحية الأسر والذبح وأنا حجاج المسيح الذاهبون إلى القديس قد انتقمنا للرب العظيم ... ، لقد أخضعنا الأتراك والوثنيين ولكن الهراطقة

المسيحيين من اليونانيين والأرمن والسوريين واليعاقة لم تستطع التغلب عليهم أنت نائب بطرس المبارك ينبغي أن تجلس على عرشه وتستخدمنا أبناء مطيعين فى تنفيذ (مشروعاتك) حتى يمكنك بقوتك وسلطانك أن تدمر الهرطقات كلها وتقضى عليها أياً كان نوعها " ؟!

وهذا الخطاب يفرغ المثال الصليبي من مضمونه ، ويجعل روايات المؤرخين المعاصرين حول حماية المسيحيين الشرقيين من بطش المسلمين نوعاً من اللغو والتحايل والإفتئات على واقع الأحداث .

وربما تمادت البابوية فى ترجمة فكرها الدنيوى فسعت بخطى حثيثة لتتبوأ مكانة الملوك الإقطاعيين حتى أصبح البابا نفسه سيداً إقطاعياً تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك العلمانيين وبدا هذا الاتجاه واضحاً منذ زمن جريجورى السابع وحتى انطلاق الدعوة المسيحية زمن إربان الثانى صوب الشرق الإسلامى فى محاولة غير مسبوقة فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية لاحتواء العالم - غربه وشرقه - تحت سيادة البابا فى روما .

وكانت البداية فى سنة ١٠٧٣م عندما أرسل جريجورى السابع إلى كل الأمراء الراجيين فى التوجه إلى أسبانيا لاسترداد الأراضى من أيدي مسلمى الأندلس " الوثنيين " وحذرهم من مغبة الانفراد بالمكاسب الإقطاعية هناك وإنما يكون ذلك بموافقة البابا الذى هو نائب القديس بطرس باعتبار أن هذه الأراضى وسائر الأملاك تؤول إليه بحكم تبعيته لسيد الخلق أجمعين .

" ...، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفرداً أو لحسابه الخاص فليكن معلوماً للجميع أنه من الخطأ المبين أن تغضبوا القديس بطرس بالاستيلاء على تلك الأراضى " .

وهذه الرسالة وغيرها من الرسائل تنم عن السيادة الإقطاعية التي سعت البابوية إلى تحقيقها باسم " السمو البابوي " وقد يتصور أحد خطأ أن هذا المسلك الدنيوي من جانب جريجوري السابع يدخل ضمن برنامج الإصلاح الكنسي ولا علاقة له بالفكر البابوي الرامي إلى " عولمة " الدعوة الصليبية بدءاً من روما وانتهاء بالقدس تحت دعوى " الدفاع عن الإيمان المسيحي العالمي " .

وهي نفس الدعوى التي رفعها إربان الثاني في كليرمون ضد أعداء المسيح في أنحاء العالم متأسيماً بفكر سلفه المقدس ، وفيها يقول :

" أنتم أيها الأخوة الأعزاء : يجب أن تفكروا وتتدبروا إذا كان الرب يتصرف من خلالكم بحيث تنعش أم الكنائس من جديد بفضل تعاونكم لتنتشر المسيحية في آفاق جديدة ، فهل يرغب الرب في استعادة بعض أقاليم الشرق إلى رحاب العقيدة في مواجهة اقتراب زمن المسيح الدجال ؟

وقد أشار جيوبرت النوجنتي إلى حقيقة هذه الدعوة الصليبية في روايته المطولة والتي تدور حول فكرة عالمية الكنيسة الكاثوليكية تحت قيادة الفرنجة " شعب الله المختار " .

"، وبفضلكم يمكن للاسم الكاثوليكي الذي سيقاوم غدر وخيانة المسيح الدجال وأعوانه أن ينشر هذا الاسم ، " .

والواقع أن التزام البابا إربان الثاني بالبرنامج الإصلاحى الجريجورى كلفه الكثير من الجهد الذى بلغ معه حد الإعياء مما جعله يتخلى جزئياً عن أيولوجية سلفه فى الصراع مع الملكية وقد تمثل ذلك فى بعض التنازلات التى قدمها للحكام النورمان فى انجلترا وجنوب ايطاليا إذ منحهم حق السيادة على الكنائس الموجودة فى أراضيهم وهو ما لم يفعله مع الحكام الألمان حسداً واستكباراً وفعله خليفته باسكال الثانى Paschal II (١٠٩٩ - ١١١٨ م) فى زمن الإمبراطور الألمانى

هنرى الخامس (١١٠٥ - ١١٢٥ م) عندما أقام الدنيا فى أوربا من فرط الدهشة بإعلانه التوصل إلى اتفاق مع عدوه اللدود - هنرى الخامس - مؤداه أن يسلم الكنسيون الألمان التاج الإمبراطورى كافة أملاكهم ومناصبهم العلمانية لى يصبحوا بعدها روجيين فقراء مقابل عدم تدخل الإمبراطور فى شئون الأساقفة ومقدمى الأديرة الألمان وهى صفقة رابحة للملكية الألمانية - خاصة - ولأرباب السلطة الزمنية فى أوربا - عامة - على المستويين السياسى والاقتصادى .

وفى رأينا أن هذه الصفقة التى جاءت نتيجة طبيعية لمبادرة إربان الثانى السلمية تجاه السلطة العلمانية فى انجلترا وإيطاليا أحدثت هزة قوية تحت أقدام رجال الكنيسة بوصفها انقلاباً على الأسس المتينة التى وضعها جريجورى السابع لتنظيم العلاقة بين البابوية والإمبراطورية وعبر عنها بوضوح شديد فى مرسومه الإملائى سنة ١٠٧٥م Dictatus papae والتى استلهم روحه من تعاليم أوغسطين ، وأمبروز والمنابع العاطفية الدينية التى سرت فى نفوس العامة فى القرن الحادى عشر مع حلول الأفكار الألفية التى تنبئ بنهاية هذا العالم السفلى ومن ثم حدث تناقض بين طرفى المعادلة الجريجورية إذ أن أحد الطرفين يدعو إلى الفكر الإنجىلى الاجتماعى الألفى ومذهب الفقر الرسولى وروحانية الكنيسة بينما يدعو الطرف الآخر من المعادلة إلى الاستبداد البابوى ، والسلطة الكنسية المطلقة وعصمة البابا مما يجعلنا - بحق - ننظر إلى نتائج الإصلاح الجريجورى الفكرية باعتبارها نتائج غاية فى التعقيد وعدم التجانس ، فضلاً عن زيفها وعدم مصداقيتها .

أما نتائج العملية والمتمثلة فى النزاع حول التقليد العلمانى والدعوة إلى الحملة الصليبية فإنها جاءت تعبيراً عن الإفلاس الأيديولوجى للفكر البابوى الذى حاول أن يوظف تعاليم دينية معينة فى خدمة أهداف دنيوية محددة .

ولسنا مبالغين إذا قلنا أن مرسوم الإملاء البابوي في سنة ١٠٧٥ م كان بمثابة " دعوة صليبية عالمية " ضد نظم الحكم السياسية ، والتنظيمات الكنسية المضادة لكنيسة روما باعتبار أن البابا جريجوري السابع - صاحب هذه الوثيقة الثورية - خليفة للقديس بطرس أمير الحواريين والتلميذ الأول للمسيح ، وفي نفس الوقت خليفة للإمبراطور قسطنطين الحوارى الثالث عشر - ومن ثم كانت حربه المعطنة ضد كل من تسول له نفسه من الأباطرة والملوك والأمراء العلمانيين أن ينال من قداسته ، وسلطته الكنسية المطلقة على كافة كنائس العالم بما يضمن التفوق والسمو للبابوية على الملكية ، وكان على رجال الكنيسة وملوك غرب أوروبا أن يدركوا حقائق هذا المرسوم المريرة وأن هذه الأيديولوجية أكثر ثورية وأشد عنفاً من الفروض القانونية البسيطة الواردة في البيان الأول لبرنامج الإصلاح .

كذلك فإن خطبة كليرمون في سنة ١٠٩٥ م أي بعد عقدين من تاريخ إصدار المرسوم كانت دعوة صليبية " عالمية " تلازمت في أهدافها مع الدعوة المحلية والتي كان من أهمها إعادة توحيد العالم المسيحي بعد المنازعات المريرة بين الكنائس العالمية في روما ، والقسطنطينية وأنطاكية ، والإسكندرية ، وفلسطين حول الكرسي الرسولي فضلاً عن إنهاء الشقاق المحتدم منذ سنة ١٠٥٤ م بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية بسبب النزاع اللاهوتي حول طبيعة المعبود والذي بلغ أقصى مداه من الكراهية حتى تصورت بعض القوى المشاركة في الحملة الصليبية الأولى وفي مقدمتها القوة النورمانية - أن هذه التجربة العسكرية موجهة في المقام الأول ضد الإمبراطورية البيزنطية ، ولم لا ؟ فتمة مقولة شهيرة لجريجوري السابع :

انه يفضل التعامل مع " الكفار " المسلمين على التعامل مع " الهراطقة "

البيزنطيين !

ومن هذا المنطلق تكاملت الدعوة الجريجورية مع الدعوة الإربانية في هدف مشترك رئيسي وهو أن الغزو الصليبي للشرق يمكن أن يكون خطوة كبيرة على طريق الهيمنة البابوية على الأراضي البيزنطية وتأكيد زعامة البابوية وسموها على الكنيسة البيزنطية تتلوها خطوة أكبر وهي الهيمنة المطلقة على أراضي وكنائس الشرق قاطبة ، ومثلما قهرت البابوية عدوها اللدود الملك الألماني هنري الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٥ م) في الغرب اللاتيني تستطيع - كذلك - أن تقهر عدوها الأشد لداً الإمبراطور البيزنطي اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨ م) من خلال هذه الحملة الصليبية المتناقضة في دوافعها وأهدافها .

الخلاصة :

وخلاصة القول في هذه الدراسة أن مرسوم الإملاء البابوي في سنة ١٠٧٥ م وخطبة البابا إربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥ م تلازماً في " عولمة " الدعوة الصليبية والتي بدأت مرحلتها الأولى " المحلية " في الغرب الأوربي عندما التقى الفكر البابوي بكل موروثاته العقيدية مع الفكر البابوي الصليبي بكل أطماعه الدنيوية في بؤرة واحدة هي " الحرب المقدسة " أو " الحرب الصليبية " التي صارت أداة طيعة في يد السلطة الكنسية الكاثوليكية لتحقيق مآربها في مواجهة السلطة الزمنية العلمانية من ملوك فرنسا وألمانيا وإنجلترا وسائر ملوك العالم المسيحي حتى صار جريجوري السابع " البابا الروحي " بمثابة " الشیطان المقدس " و " الراهب الزائف " المقتصب لكرسي بطرس الرسول على قول الإمبراطور هنري الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦ م) .

ولذلك لم يكن عجباً أن يطرح جريجوري السابع فكرة إنقاذ مسيحي الشرق والقبر المقدس في فلسطين جانباً ، وأن يشحذ همته بكاملها لشن حرب صليبية لا هوادة فيها ضد هؤلاء الحكام العلمانيين على مدى عشر سنوات

(١٠٧٥-١٠٨٥م)، وأن يجعل من أحد هؤلاء الحكام " هنري الرابع " عبرة لمن يخشى من الأباطرة والملوك الذين تمردوا عليه واستكبروا على سلطانه العظيم فكان حتماً عليهم أن يقبلوا القدم ويبدوا شديد الندم على ما اقترفه الإمبراطور الألماني في حق البابا ، وإلا يلقون آثاماً ويكون من حق البابا عزلهم جميعاً بموجب قانونه الكنسي .

ولم يكن عجباً - كذلك - أن يواصل إربان الثاني مسيرة سلفه - جريجوري السابع في إطار مشروع عالمي صليبي في اتجاه الشرق على محور القسطنطينية - القدس إعلاءً لنظرية السمو البابوي التي طبقة بنودها عملياً في الغرب الأوربي بنجاح منقطع النظير وحين الوقت لتطبيقها على هراطقة القسطنطينية قبيل مواجهة "الكفار" المسلمين لاستكمال مراحل هذا المشروع العالمي الصليبي الذي وضع قواعده الأولى البابا جريجوري السابع لفرض هيمنة الكنيسة الكاثوليكية على سائر كنائس العالم إذ " لن ينعم بالسلام كل من يخالف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يحيد عنها " على قول البابا .

لقد صارت البابوية بدعوتها الصليبية العالمية بحثاً عن الثروة والجاه وسائر الشهوات أكثر علمانية من العلمانيين بعد أن هجرت تعاليم المسيح الداعية السلام والمحبة والوئام ، وصارت الدعوة الصليبية مصطلحاً سيئ السمعة في كتابات المؤرخين وستظل كذلك إلى يوم الدين ، ولم تعد الحروب الصليبية في أذهان الباحثين سوى قصة تراجيدية حافلة بمشاهد الطمع والخسة ، وصور الخزي والعار لأكبر مشروع استعماري استيطاني في عالم العصور الوسطى .

قائمة المصادر

والمراجع العربية والأجنبية

المصادر والمراجع العربية :

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم ، ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م)
- الكامل في التاريخ " الجزء العاشر " (دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ م)
أرنست باركر :
- الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٦٠ م)
البرت الأبكسى :
- نصوص مختارة من كتاب " الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق " اختيار قاسم عبده قاسم
(القاهرة - بدون تاريخ)
جوزيف نسيم يوسف :
- الغرب والروم واللاتين
رافت عبد الحميد محمد :
(القاهرة ١٩٦٧ م)
- الدولة والكنيسة " ٥ أجزاء " (دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ م)
- نظرية السمو البابوى بين النظرية والتطبيق
(ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد ٣ ، القاهرة ١٩٨٥ م ص ١٥٧ - ٢٢٦)
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة
(دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٧ م)
- قضايا من تاريخ الحرب الصليبية
(دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٨ م)
روبير الراهب :
رواية مجمع كليرمون - ضمن كتاب قاسم عبده قاسم " الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق " (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠١ م)
سعيد عبد الفتاح عاشور :
- الحركة الصليبية (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط ٦ ، ١٩٧٦ م ، جزءان)
- أوربا العصور الوسطى (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط ١٠ ، ١٩٨٦ م ، جزءان)
فوشيه الشارترى :
- تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ترجمة وتعليق زياد العسيلي
- رواية مجمع كليرمون - ضمن كتاب قاسم عبده قاسم
" الحروب الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق تاريخية " (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠١ م) ص ٧٣-٧٦
قاسم عبده قاسم :
- الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية - دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩ م (دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ م)
- ماهية الحروب الصليبية (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٣ م)
- الحروب الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق
- المسلمون والفرنج : صورة الآخر في عصر الحروب الصليبية
الندوة التاريخية المصرية الألمانية الأولى تحت عنوان :
المسلمون والأوروبيون في العصور الوسطى : صورة الآخر
(الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ٢٩ - ٣٠ أبريل ٢٠٠٨ م)

ميشيل بالار :

- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن ١١ إلى القرن ١٤
ترجمة بشير السباعي (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م)

نورمان كانتور:

- التاريخ الوسيط - البداية والنهاية
ترجمة وتطبيق قاسم عبده قاسم "جزءان" (دار عين، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ م).
هسي (ج . م) :
- العالم البيزنطي ، ترجمة وتقديم وتطبيق رافت عبد الحميد
(دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٧ م)

المصادر والمراجع الأجنبية:

Ann Comnena :

- Alex, TrAnslated by E.R.A.Sweter Penguin, 1979 .

Atiya .A.S:

- A History of Eastern Christianty, London, Notre Dam, 1968.

EVSEBIVS:

- Historia Ecclesiastica: Nicene 12, 73-381 (= P . G . XX 45 – 906).
- Vita Constantine: Nicene 12, 473 – 580 (= P. G . XX905 – 1232).

Jones (A. H. M.):

- Constantine and the conversion of Europe, penguin, 1972.

Macmullen (R.):

- Constantine, New York, 19971.

Saint Augustine:

- The city of Good , Baltimore, penguin, 1972.

Thompson (J. W.)

- History of the Middle Ages , 300 – 1500, London, 1931.

Vasilieve (A.):

- Histoire d, L'Empire Byzamtine 2 vols, paris, 1932.

Walson (H.) The philosophy of the church fathers, Harvard university, 1970.

حتمية الوحدة بين مصر والشام

في ضوء أحداث الحملة الصليبية / البيزنطية

على دمياط في سنة ٥٦٤هـ - ٥٦٥هـ / ١١٦٩م

تقدمة :

لم تنل مرحلة زمنية فى التاريخ الإنسانى من البحث والدراسة التحليلية والنقدية مثلما نالت "الحروب الصليبية" منذ بدأت دعوتها البغيضة الأولى فى كليرمون بجنوب فرنسا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م وحتى انتهت فى وجودها السياسى والعسكرى بسقوط آخر المستوطنات الصليبية فى عكا ١٢٩١م .

وعلى أرض فلسطين قامت أول مملكة صليبية فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م تحت حكم جودفرى دى بويون (Godfrey de Bouillon) وهى المملكة التى لم يعترف بها البيزنطيون (الروم الأرثوذكس) الذين عانوا من حملة الصليب (الفرجة الكاثوليك) الأمرين ولاقوا من الأضرار الجسام على أيديهم ما لا تقل كثيراً عما لاقاه المسلمون والمسيحيون الشرقيون فى بلاد الشام ومصر .

ولأن المشروع الصليبي قد تم تنفيذه من جانب أرباب السلطتين الدينية والزمنية فى الغرب الأوربي بطريقة عدوانية انتهازية اتخذوا فيها الصليب - بهتاناً وزوراً - وسيلة شرعية أخلاقية لتحقيق أهداف غير شرعية ولا أخلاقية ، مما أفرغ المثال الصليبي من مضمونه الدينى القائم على السلام والفداء والإيثار ليفرز واقعاً مأساوياً يقوم على الحرب والاستغلال والأنانية ، فإن المفارقة التى تثير فضول الباحث تكمن فى هذا التحالف بين المعسكر الصليبي بقيادة عمورى الأول Amalric I (١١٦٢ - ١١٧٤م) والمعسكر البيزنطى بقيادة مانويل كومنين Manuel - Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠م) بغرض شن حملة صليبية على مصر لضمها إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية وبهذا ترجح كفة الصليبيين فى مواجهة جبهة الشمال فى بلاد الشام.

وكما يقولون فإن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن إذ تحولت النتائج
المرجوة من تلك الحملة إلى الاتجاه المعاكس في المعسكر الإسلامي مما كان له
تأثير مباشر في تحول المجاهدين المسلمين من سياسة الدفاع العسكري إلى سياسة
الهجوم الشامل على المستوطنات الصليبية في بلاد الشام من خلال توحيد الأهداف
والوسائل بين جبهتي الشمال والجنوب لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الصراع
الإسلامي / الصليبي وهو ما تكشف عنه هذه الدراسة .

المرحلة التحضيرية :

لم يكن الملك عمورى الأول (أمالريك) (ت ١١٧٤ م) مبتدعاً عندما شرع فى غزو مصر بالتحالف مع الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (ت ١١٨٠ م) بل سبقه إلى ذلك ملوك بيت المقدس من أمثال بلدوين الأول ، وفولك الأنجوى وبلدوين الثالث فى الفترة الزمنية الممتدة من بداية القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى وحتى وفاة بلدوين الثالث فى سنة ١١٦٢ م / ٥٥٧ هـ ، والتي كانت فترة تحضيرية لمرحلة شرسة من مراحل الصراع الإسلامى / الصليبي .

لقد كانت الغزوات التى حدثت فى عهود أسلافه ضرباً من ضروب الاستطلاع الحربى دون الدخول فى مواجهات قتالية استراتيجية على غرار ما حدث فى عهد " عمورى " فى الفترة من سنة ١١٦٣ إلى سنة ١١٦٩ م حيث دخل فى صراع مرير مع خصمه " نور الدين محمود " (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) بغية السيطرة الكاملة على مصر باعتبارها بؤرة الانطلاق نحو السيادة على كل ولايات وممالك الشرق وكان لسان حال " عمورى " فى مواجهة " نور الدين " يقول :

"إن ملكها نور الدين لا يبقى للفرنج فى بلادهم مقام ، بل إنه كان يصرح لأمرائه دون استحياء بأن ضياع مصر من أيدي الصليبيين وصيرورتها إلى حاكم دمشق يعنى " هلاك الفرنجة وإجلاؤهم من أرض الشام وأنها إن آلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه " .

ويبدو أن ثمة نوعاً من التوافق فى الخواطر السياسية والعسكرية بين المتنافسين على حكم مصر إذ يصرح نور الدين محمود فى أعقاب انقضاء مجلس المشورة الصليبي بقوله لمروسيه :

" إننا إن أهملنا أمر مصر ملكها الفرنج ولا يبقى معهم مقام بالشام " .

إذن مسألة غزو مصر والسيطرة على مقدراتها لم تعد تقبل التروى أو الانتظار من جانب الجناحين العسكريين للقوات الإسلامية والصليبية حتى وإن اضطر عمورى أن يدفع مهراً غالياً لزواجه من إحدى أميرات الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية فى سبيل كسب تأييد الدولة البيزنطية المارقة .

بل إن " عمورى " الذى واجه عقبات بالغة الصعوبة نحو ولاية مملكة بيت المقدس كان يعزف هو ومقدم الاسبتارية جيلبرت دى سيلى Gilbert de Seli على وتر حساس جداً اسمه "مصر" حتى أن جيلبرت هذا كان حريصاً على شحذ همم البارونات والفرسان وسائر القوى الأخرى لتأييد "عمورى" متوعداً الجميع بأن التاج إذا لم يوضع على رأس هذا الكاثوليكي فإنه سوف يصير من نصيب أحد حكام المسلمين وبعدها سيصبحون عبيداً لهؤلاء المسلمين " الكفار " .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مقدم الاسبتارية جيلبرت - هو المسئول الأول عن تشجيع الملك عمورى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م لتجهيز أول حملة عسكرية فى عهده لغزو مصر ، وأمدّه بالمال والفرسان مقابل أن يمنحه الملك هو وفرقته مدينة بلبيس وأجوارها إذا تحقق النصر للصليبيين على المسلمين .

وقد نجح عمورى فى غزو الدلتا فى سبتمبر ١١٦٣م حتى وصل بلبيس وحاصرها ، ولكن فيضان النيل فى الأراضى المصرية أجبر الملك وجنوده على الانسحاب دون أن يحقق أى نصر يذكر فى تلك الحملة .

والواقع أن جبهة الشام كان لها دور بالغ الأهمية فى انسحاب القوات الصليبية من مصر عندما قرر نور الدين محمود مهاجمة معقل الصليبيين فى الشام فى نفس توقيت الهجوم على مصر فى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م مما شتت الطاقة القتالية للاسبتارية بين جبهتين من ناحية وخفف الضغط الصليبي على القوة النورية بقيادة أسد الدين شيركوه فى مصر من ناحية أخرى ، وبالتالي كان عمورى مضطراً

للكوص على عقبه والعودة سريعاً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الممتلكات الصليبية في الشام ، وإن كانت هذه الحملة قد فشلت في تحقيق الهدف الرئيس وهو الاستيلاء على مقاليد الأمور في مصر إلا أنها حققت نتيجة مهمة ، وهى معرفة الصليبيين بمدى ضعف جبهة الجنوب (مصر) وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها فى أى وقت مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر واستنزاف مواردها المالية والطبيعية .

وفى هذا الأثناء لجأ " شاور " إلى نور الدين محمود فى الشام ليستنجد به ويرغبه فى الديار المصرية وقال له : " أكون نائبك بها " وتعهد له بثلاث دخل البلاد إن هو مكنه من العودة إلى الوزارة وفعلأ أرسل نور الدين حملة مع شاور إلى مصر فى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م بقيادة أسد الدين شيركوه الذى كان بصحبته ابن أخيه صلاح الدين وعندئذ استنجد الوزير ضرغام بالملك الصليبي عمورى ولكن جيش نور الدين كان أسبق فى الوصول إلى أسوار القاهرة فى أول مايو ١١٦٤م بعد أن تخلى الجيش عنه ، وقتل عند محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة .

وسرعان ما تنكر " شاور " لوعوده التى قطعها على نفسه فى مقابل مساندة نور الدين محمود له وتمكينه من كرسى الوزارة بعد مقتل خصمه ضرغام فرفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه بل وطلب منه الرحيل عن مصر ، ولكن شيركوه رد على هذا التصرف الجاحد باحتلال بلبيس والشرقية مما جعل شاور يحذو حذو سلفه ضرغام فى الاستنجد بالصليبيين مقدماً للملك عمورى الأول كافة التنازلات والوعود التى بلغت فى مهانتها حد الالتزام بتوفير " علف الدواب " .

ولم يكن أمام الملك عمورى سوى الموافقة لما فى ذلك من تحسين للأوضاع الاقتصادية لمملكة بيت المقدس عن طريق الأموال الوفيرة التى سوف يدفعها شاور

وبقاء نفوذهم بالشام فضلاً عن إجهاض فكرة قيام وحدة مصرية شامية ضد الصليبيين .

ولكن هذه الحملة لم تسفر عن شئ سوى الاتفاق على أن يغادر الجيشان الإسلامى والصليبي مصر وكان ذلك فى أواخر سنة ١١٦٤م .

ومنذ ذلك الحين ومصر تداعب خيال كل من عمورى وأسد الدين شيركوه الذى تمركز بقواته فى بلبيس بعد موافقة شاور على شروطه والتي تمثلت فى أن يدفع للملك الصليبي ٤٠٠,٠٠٠ دينار على دفعات فى فترات محددة مقابل التزام عمورى بالبقاء فى مصر حتى يتم طرد شيركوه وجيشه من مصر وهو ما وافق عليه الخليفة الفاطمى " العاضد " الذى كان يحتضر سياسياً .

وقد انتهت هذه الحملة بعقد صلح بين المسلمين والصليبيين بعد أن تكبد جيش عمورى الأول خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات والأموال .

والواقع أن أهم نتائج هذه الحملة ما جاء فى رواية ابن شداد من أن " أسد الدين شيركوه " عاد إلى الشام وقد انضم إلى قوة الطمع فى البلاد وشدة الخوف عليها من الإفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذى عرفه " وهى عبارة بليغة فى فهم عملية الصراع بين الفرقاء .

وأما بالنسبة للملك الصليبي عمورى فبته عمل منذ فشله فى هذه الحملة على تقوية روابطه مع الإمبراطور البيزنطى ماتويل كومنين وذلك بغية الإعداد لمشروع حملة صليبية بيزنطية تكون وجهتها مصر بعد أن علم من قواته المرابطة بمصر بأن الفرصة صارت سائحة تماماً لتنفيذ هذا المشروع الذى يفضى فى النهاية إلى احتلال مصر وتوظيف ثرواتها ومواردها فى القضاء على قوات نور الدين محمود فى الشام ، ودعم الوجود السياسى لمملكة بيت المقدس اللاتينية .

ويبدو أن الخليفة العاضد ووزيره شاور قد أفاقا متأخراً من غفوة العمالة والتواطؤ مع القوى الصليبية فطلبوا النجدة من نور الدين محمود في مواجهة الزحف الصليبي على مصر لاحتلالها من خلال حملة جديدة وصلت إلى القاهرة في صفر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ولم تلتق مع الحملة التي أرسلها نور الدين محمود للمرة الثالثة بسبب تخوف عموري من عواقب المواجهة ومن ثم فقد عاد إلى مملكته مذموماً مخذولاً وأما "شاور" فقد كانت عاقبته ضرب عنقه وحمل رأسه إلى الخليفة الفاطمي جزاءً وفاقاً على خيانتته وغدره ونقضه للعهود .

والواقع أن سلسلة الحملات الصليبية والمعاهدات التي أبرمها الصليبيون مع الخلافة الفاطمية ممثلة في الوزير "شاور" والتي بلغت منتهاها في سنة ١١٦٧م بتلك المعاهدة المجزية قد تصور معها الأمراء والقادة الصليبيون أنهم قد صاروا قاب قوسين أو أدنى من احتلال مصر وضمها إلى أملاكهم في بلاد الشام لتكون حصناً منيعاً لهم في مواجهة القوى الإسلامية ومعيناً لا ينضب لمواردهم الاقتصادية والبشرية في الشرق العربي ، إلا أن الرياح جاءت بما لا يشتهي "عموري" إذ انهزمت قواته أمام قوات نور الدين محمود بقيادة "أسد الدين شيركوه" مما جعله يوافق مرغماً على عرض الصلح المقدم إليه من "شيركوه" مقابل الجلاء عن مصر وتبادل الأسرى .

وهذه الحالة من المد والجزر في المواجهات بين الصليبيين والمسلمين في تلك المرحلة التي سبقت سقوط الدولة الفاطمية وإعلان حكم الأيوبيين لمصر تحت رداء الخلافة العباسية - كان مرجعها في الأساس الأول المواجهات الأخرى بين الطرفين في جبهة الشام والتي كانت ترغبها على الهدنة والمصالحة من أجل إعادة تنظيم صفوفها ، وتعديل خططهما الحربية حسبما تمليه عليها الظروف هناك يدل على هذا أن "عموري" بعد الصلح مع "شيركوه" عاد إلى الشام لتأمين

أملاك الصليبيين بعد أن قام نور الدين بالهجوم على بعض الحصون والقلاع ، وفي نفس الوقت عاد " شيركوه " بقواته لدعم قوات نور الدين تاركاً وراءه حلماً يداعب جفون المصريين في قوة إسلامية تدافع عن حقوقهم المشروعة في الحياة الآمنة المطمئنة ، وهو الحلم الذي يمكن تحقيقه من خلال وحدة جبهتي الشمال والجنوب في الشام ومصر .

وهكذا انتهى أمر الوزارة الفاطمية في مصر بقتل " شاور " وولده الكامل في يناير ١١٦٩م وتولى شيركوه المنصب بتقليد من " العاضد " إلا أن الأول لم يلبث أن توفي بعد شهرين من ولايته في رجب سنة ٥٦٤ الموافق ٢٣ مارس سنة ١١٦٩م وعندئذ خلفه " صلاح الدين " الذي كانت المصادر قد أظهرته " مجبراً لا بطلاً " خلال الحملات الصليبية الثلاث التي صحب فيها عمه أي أنه كان مكرهاً على المجئ إلى مصر بسبب ما لاقاه من شدائد ومخاطر في غضون تلك الحملات وبخاصة الحملة الأخيرة التي كان فيها على موعد مع القدر بوفاة عمه وولايته الوزارة في مصر.

التحالف الصليبي / البيزنطي لغزو مصر :

وفي هذه الأثناء كان الملك عموري يشجع الإمبراطور البيزنطي على إعادة التحالف معه لغزو مصر واقتسامها فيما بينهما ، كما قام بمراسلة الفرنج في الأندلس وصقلية طالباً منهم الدعم بالسلاح والأموال لأن الأمور لم تعد تحتل التأخير إلا أن نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وسائر القادة المسلمين كانوا على علم بتحركات الصليبيين وعزمهم على تكثيف الجهود والقيام بأكبر حملة

فى سلسلة الحملات التى شنها عمورى بعد أن وعده الإمبراطور البيزنطى بإرسال مساعدات بحرية تكون أزراً وسنداً للقوات الصليبية البرية .

وقد أشار ابن الأثير إلى أهمية هذه الحملة وما تمثله بالنسبة للصليبيين بقوله : " إن إفرنج الساحل قد أيقنوا بالهلاك ، لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر فكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرهما ، يستمد منهم ويعرفوهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين ، ويشير ولیم الصورى وهو أحد شهود العيان على أحداث تلك المرحلة الحرجة فى تاريخ الصراع الإسلامى الصليبي بما يؤكد مخاوف "عمورى" من تصاعد مد القوى الإسلامية فى كل من مصر والشام حيث يذكر أن الأسطول البيزنطى ظل قابلاً فى مياه قبرص فى انتظار تعليمات ملك بيت المقدس بالتحرك نحو دمياط وذلك بسبب شعور الملك الصليبي بأن قواته غير مهيأة للاشتراك فى هذه المرحلة وبخاصة فرقة الداوية التى دأبت على رفضها الاشتراك فى مثل هذه الحملات الفاشلة .

ولكن " عمورى " كان يدرك فى ذات الوقت أن تقاعسه عن تسيير تلك الحملة المشتركة سوف يطيح بكل آماله بعد أن خضعت كل البلاد الإسلامية لسيطرة نور الدين محمود وصارت مصر قاب قوسين أو أدنى من حكم البيت النورى فى إطار الوحدة بين جبهتى الشمال والجنوب (الشام ومصر) وبذلك يكون من السهل محاصرة الصليبيين فى الساحل وتضييق الخناق عليهم وهو ما يخشاه " عمورى " وترتعد له فرائصه ، ومن ثم فإن هذه الحملة على دمياط - فى حالة نجاحها - تمثل له طوق النجاة فى بحر لجى يغشاه الموج من كل جانب ، ويصبح بعدها غنياً بفضل مصر وعن سواها من الدول الأوربية .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن " عمورى " لم يلجأ فى حملته هذه إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين إلا بعد أن أفرغ يديه تماماً من إمكانية

مساعدة ملوك غرب أوربا له وبخاصة فرنسا التي كان يعتبرها موطنه الأصلي وأن مملكة القدس تابعة لها ، وبرغم توسلاته التي تكشف عنها مكاتباته التي يصف فيها المسلمين بالكافرين وأنهم " الأسد المفترس " الذي سوف تسقط " مملكة الرب " بين فكيه إذا لم يسرعوا لنجنتهم منهم بعد أن صار الأمر " يفوق الوصف ، والاحتمال " على قول أحد المعاصرين .

" ...، إن أفضالكم وأياديكم البيضاء التي لم تعرف شيئاً سوى العطاء والكرم ومن ثم فابتنا نهيب بكم أن تفتوا ما نحن على ثقة كاملة فيه ، أن تبذلوا وسعكم لدفع معاناة مملكة الشرق،....".

هكذا كانت توسلات عموري لملوك الغرب الأوربي والتي لم تؤت ثمارها بسبب انشغالهم بصراعاتهم الداخلية - تعبيراً عن إفلاس مملكة بيت المقدس وعجزها عن الدفاع عن نفسها في مواجهة حركة الجهاد الإسلامي ومن كان مجبراً - لا مخيلاً - في إراقة ماء وجهه أمام الإمبراطورية البيزنطية .

وفي تصورنا أن الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين لم يكن غافلاً عن رؤية عموري من عرض التحالف معه لإرسال حملة مشتركة إلى مصر ، ولكنه في نفس الوقت لم يكن أقل منه طمعاً في مصر ، ولم لا؟ ألم تكن مصر يوماً جزءاً رئيساً من أملاك البيزنطيين في الشرق؟ كذلك فإن الإمبراطور البيزنطي كانت له المساعي الحميدة من أجل التوفيق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية والتي لم تتوج بالنجاح ، فلم لا يكون صاحب الأيدي البيضاء على المسيحيين الكاثوليك في صراعهم مع المسلمين كي يضمن لنفسه - خاصة - والإمبراطورية البيزنطية - عامة نوعاً من الوصاية على الأماكن المقدسة في فلسطين ، بل إن - مانويل - قام - أثناء مرحلة التحالف مع مملكة بيت المقدس - بتجديد بعض

العمائر الكنسية فى القدس وبيت لحم فكان جديراً بأن ينقش اسمه على لوحة فى صحن كنيسة الميلاد تعبيراً عن امتنان الكاثوليك للإمبراطور البيزنطى الهمام . وعلى أى حال فإن هذا التحالف المتناقض فى ذاته من خلال الخلفية الأيدلوجية للحركة الصليبية التى تكن كُرهاً دفيناً للإمبراطورية البيزنطية لم يكن يحقق غايته فى ضوء الأحداث التى سوف نعرض لها ، والتى تكشف فى مضمونها عن روح العداء والأنانية من جانب القوات الصليبية فى تعاملها مع حليفها اللدود (الدولة البيزنطية) ، وكيف أن عمورى الأول كان مستعداً لاستخدام البيزنطيين وقوداً لنيران الحرب ضد المسلمين لكى ينفرد بثروات مصر وحده ، مثلما كان هو الحال فى كل مخططات الحركة منذ دعوة " إربان الثانى Urban II " فى نهاية القرن الحادى عشر والتى حاول أن يستخدم فيها " بيزنطة " درعاً مسيحياً شرقياً يدعم به أطماعه فى الشرق باسم الدفاع عن المسيح .

الخطّة العسكرية :

كانت الخطّة العسكرية للحملة الصليبية البيزنطية تتلخص فى اتخاذ عسقلان منطقة تمرکز للقوات البرية والبحرية ومنها تنطلق القوات فى اتجاه دمياط حيث تتولى القوات البرية (الصليبية) مهمة الحصار البرى للمدينة ، بينما تتولى القوات البحرية (البيزنطية) مهمة الحصار البحرى وبذلك يتم تطويق المدينة " براً وبحراً " وإحكام الحصار عليها من كل جانب حتى تستسلم ، وتصبح قاعدة عسكرية يمكن من خلالها مواصلة زحفهم نحو القاهرة .

ومن المعروف جغرافياً أن " دمياط " هى أقرب الموانئ المصرية إلى " القدس " ثم " قبرص " مقر الجيوش الصليبية - وبالتالي فإن الاستيلاء عليها

كان يمثل مكسباً استراتيجياً كبيراً باعتبارها المدخل الرئيس والمباشر للعاصمة المصرية فإذا أضفنا إلى ذلك موقع دمياط على مصب النيل الشرقى (دائرة عرض ٣١,٢٥ شمالاً ، وخط طول ٣١,٤٨ شرقاً) والذي جعلها سوقاً تجارية دولية بين الشرق والغرب .. أدركنا أهمية تلك المدينة فى المنظور الاقتصادى للحملات الصليبية فى أواخر العصور الوسطى حتى أن أحد المؤرخين اعتبر سقوط دمياط فى أيدي الصليبيين " مصيبة ليس لها مثيل " بينما يرى مؤرخ آخر أن من يملك دمياط فإنه يستطيع أن يملك سائر الديار المصرية ، والقدس ، وسائر بلاد الشام .

المرحلة القتالية :

وقد وصلت القوات الصليبية إلى ساحل دمياط فى ٣ صفر سنة ٥٦٥هـ / ٢٧ أكتوبر سنة ١١٦٩ ، وظلت قابضة فى مياه البحر فى انتظار وصول الأسطول البيزنطى لمدة ثلاثة أيام دون أن تستطيع هذه القوات مجتمعة دخول دمياط بسبب وجود السلاسل الحديدية الممتدة فى الماء بعرض الميناء مما دفع الصليبيين إلى الشروع فى بناء برج خشبى من سبعة طوابق كى يتمكنوا من مشاهدة المدينة ومراقبة تحركات المقاومة الإسلامية ، وفى الوقت نفسه كانوا يقذفون المدينة بالأحجار بواسطة المنجنيقات التى أسفرت عن هدم كنيسة العذراء .

ويذكر لنا ولیم الصورى أن القوات الإسلامية قامت ببناء برج خشبى متحرك وشحنوه بالمقاتلين ، مما أضعف الروح المعنوية لقوات التحالف خاصة أمام المقاومة الباسلة لشعب دمياط ومما زاد حالة قوات الحملة سوءاً النقص الشديد فى الزاد وبخاصة القوات البيزنطية التى دفعها الجوع المميت إلى التهام أوراق الشجر من أجل دفع شبح الموت عنها .

بل إن هذا المؤرخ المعاصر يطالعنا فى رواياته بمشاهد متناقضة فى المعسكرين الإسلامى والصليبي تكشف فى مجملها عن قوة العقيدة فى نفوس المسلمين من القوات النظامية أو الشعبية وكذلك عن الإفلاس العقيدى والضعف المعنوى الذى استشرى فى صفوف القوات المتحالفة إلى حد أن قوات عمورى كان لديها من الطعام ما يكفى تقديم بعضه إلى الجنود البيزنطيين الذين يتضورون جوعاً ومع هذا كانت أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بعد أن بسط الإمبراطور البيزنطى لهم يده كل البسط ومما زاد الأمر سوءاً هبوب الرياح العاتية مما أدى إلى اشتعال الحرائق وحرق بعض السفن البيزنطية وتفرق القوات وانهيار الروح المعنوية للجنود ، فى الوقت الذى لم يحرك الملك عمورى ساكناً ، ولم يبادر بتقديم أى نوع من المساعدة لحلفائه البيزنطيين وكأنما كان يريد هلاك الحلفاء كى يستأثر- وحده - بالفريسة وهو ما فطن إليه قائد القوات البيزنطية كونتوستفانوس Conto - Stephanus الذى صمد إلى النهاية من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرواح جنوده .

وفى ذلك التوقيت كانت قوات صلاح الدين الأيوبي - وزير مصر - تسرع الخطى إلى دمياط على رأس جيش بقيادة أخيه تقي الدين عمر ، وخاله شهاب الدين الحارسي ، وقام بإرسال عدد كبير من السفن الحربية للدفاع عن المدينة فى مواجهة الأسطول البيزنطى ومن ناحية أخرى قام نور الدين محمود بالهجوم على معاقل الصليبيين فى الشام كى تنقسم القوات الصليبية بين الشام ومصر من ناحية وتنقطع الإمدادات العسكرية عن قوات الحملة المرابطة فى دمياط من ناحية أخرى فإذا أضفنا إلى هذا الدعم المادى من جانب الخليفة العاضد لصلاح الدين أدركنا حقيقة غاية فى الأهمية وهى أن نور الدين محمود كان يمثل مع صلاح الدين الأيوبي زاوية تكاملية فى مواجهة القوى الصليبية وليس زاوية عكسية كما حاولت أقلام

بعض المؤرخين المعاصرين تصويرها من خلال روايات ضعيفة فى سندها وهشة فى مضمونها ، وغير متوافقة مع العلاقة التسامتية والأهداف المشتركة فى الفكر السياسى والعقيدى لهذين القائدين الفذين اللذين كانا يعملان من أجل هدف واحد هو تحرير القدس وسائر الأراضى الإسلامية المحتلة من خلال توحيد جبهتى الشمال والجنوب (الشام ومصر) كامتداد لخط الجهاد الإسلامى الذى وضع نقطة البداية فيه القائد المجاهد عماد الدين زنكى فى بداية القرن السادس الهجرى /الثانى عشر الميلادى وسار على نهجه ابنه نور الدين محمود ، ومن بعده تلميذه النجيب صلاح الدين الذى توج جهود سلفيه فى نهايات هذا القرن بالنصر المؤزر على الصليبيين فى حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ثم تحرير القدس الشريف وتأكيد هويتها العربية الإسلامية .

حتمية الوحدة المصرية الشامية :

كان كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي يريان حتمية الوحدة بين الشام ومصر وأنها السبيل الوحيد لتحرير القدس ودرء كافة الأخطار المحدقة بالعالم العربى الإسلامى إلا أن صلاح الدين كان يرى مصر المركز الرئيس لإدارة مسرح العمليات الحربية .. وبالتالى لابد أن يكون بها جيش قوى ونظام سياسى متين لا ينقسم على نفسه فى ولائه لروح الجهاد الإسلامى مثلما كان الأمر مع النظام السياسى الفاطمى المزعزع ، وهو ما تحقق بالفعل فى مواجهة الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط فى سنة ٦٥٤هـ / ١١٦٩م .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن نور الدين محمود بعد سقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م كان حريصاً على توحيد الجبهتين الشامية والمصرية

فى إطار الخلافة العباسية ، ولذا فإنه أرسل للخليفة المستضى يخبره بما آلت إليه الأمور وبما تحقق على يديه من انتصارات لمصلحة الإسلام والمسلمين ، ودوره البارز فى محاربة الفرنجة والروم والقضاء على مناطق نفوذهم فى بلاد الشام .
ومما يدل على عظم نفوذ الدولة النورية فى الشام والدولة الأيوبية فى مصر أن الخليفة العباسى استجاب لمطلب نور الدين محمود فى ضم بعض المناطق الحيوية فى العراق إلى جبهة الشام وهى درب هارون وصريفين على نهر دجلة وهما من المناطق المتميزة جغرافياً واقتصادياً والتى مكنته من تقوية الجبهة الشامية من ناحية ، ومد نفوذه السياسى فى عمق (العراق) أراضى الدولة العباسية من ناحية أخرى .

ونحن لا نميل إلى كثير من الروايات المتناثرة فى بطون بعض المصادر العربية ، والتى تثير شهوة المستشرقين - من حيث اهتمامها بظواهر الأسباب التى أدت إلى فتور العلاقة بين نور الدين محمود (الشام) وصلاح الدين الأيوبى (مصر) باستثناء الرواية التى ذكرها ابن الأثير فى " الكامل " ونقلها عنه ابن تغرى بردى فى " النجوم " والتى تشير إلى حكمة صلاح الدين السياسية ورفضه الدخول فى مواجهات عنيفة مع سيده نور الدين معتمداً فى ذلك على مشورة والده نجم الدين أيوب إذ أن هذه الروايات لا تتناسب مع طبيعة الدور البطولى لكليهما فى الجهاد ضد الصليبيين ودفع الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامى مضعين فى ذلك بكل غال ونفيس ، فكيف يكون الخلاف بينهما على " هدية " أو شئ من " الغنائم " ؟ لقد اختلفا - إن جاز التعبير - فى اتفاقهما على وحدة العرب والمسلمين وكيفية الوصول إلى هذا الهدف الأسمى من خلال وحدة الشام ومصر أولاً وقبل كل شئ وهو ما تحقق بالفعل بفضل الجهود الدورية النورية والصلاحية المظفرة .

كذلك فإن أحداث هذه الحملة كشفت - بما لا يدع مجالاً للشك - عن حقد دفين في نفوس الفرنجة الصليبيين تجاه حليفهم اللدود " البيزنطيين " ، وعن سوء نية عمورى الأول حين تباطأ فى الدخول إلى المعركة كي يضع البيزنطيين فى وجه المقاومة الإسلامية التى ألحقت بهم خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات ومن ثم يتيسر له تحقيق أهدافه اللعينة على حساب الحليف البيزنطى مانويل كومنين الذى تصور أنه يمكن أن يكون له نصيب الأسد فى هذه الحملة دون أن يدرى أنه سيصبح جزءاً من الفريسة الكبرى التى لم ينلها عمورى هو وقواته وعادوا أدراجهم بخفى حنين أو حسب تعبير ابن الأثير " ذهب النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين " .

ويبدو أن القائد البيزنطى " كونتو ستفانوس " كان محقاً فى كلماته التى ألقاها على مسامع جنوده عندما حلت بهم الكارثة فى عرض البحر على ساحل دمياط ، وأدركهم الموت من كل جانب والتى يقول فيها :

" إن البقاء فى هذا المكان طويلاً لأمر مفرج ، كما أن عودتنا خاوين الأيدي دون أى إجراء هجومى ضد العدو (المسلمين) لهو مذلة ، ولكن الأسوأ من هذين الأمرين والأكثر سخرية هو محاولة إقناع رجل (عمورى) ليس فقط غير جدير بحكم الروم وإنما أيضاً عديم الكفاءة لقيادتنا فى مواجهة أعدائنا ، ألم تلاحظوا أن الملك الذى أقام معسكره بعيداً عن معسكرنا ولم يتحرك منه خطوة واحدة بوصفه محارباً وحليفاً لنا ، يتصرف كما لو كنا استعنا به كي يكون متفرجاً وليس كمنفذ للأوامر العسكرية " .

لقد تأكدت هواجس وشكوك البيزنطيين مع توالى الحملات الصليبية فى هذا العداء اللاتينى الدفين للدولة الرومانية الشرقية والذى تحول إلى أمر واقع

فى سنة ١٢٠٤م على أيدى قوات الحملة الصليبية الرابعة عندما صرع الصليب الكاثولىكى صليب الأرثوذكس .

نتائج الحملة على المعسكرين الصليبي والإسلامي :

لقد انتهت الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط بالفشل الذريع ، وكان الحصاد بالنسبة لمملكة بيت المقدس بقيادة عمورى الأول ، والإمبراطورية البيزنطية بقيادة كونتوستانوس هشيماً تذروه الرياح التى أجهزت على الأسطول البيزنطى عندما هبت عاصفة بحرية عاتية أهلكت الكثير من الأرواح والسفن والمعدات فى رحلة العودة البائسة بعد أن وافق صلاح الدين على الصلح الذى عرضه عليه الحليفان بعد حصاره لمدينة دمياط دام خمسين يوماً ، أثبتت فيه المقاومة الإسلامية النظامية والأهلية قدرتها على التصدى لأى قوة عسكرية ما دامت الجهود العربية متحدة مادياً ومعنوياً فى مواجهة الأعداء ولذلك فإن من أهم نتائج تلك الحملة بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي أنها زادت إيمانه بأهمية مصر فى إدارة عملية الصراع الإسلامى الصليبي من ناحية وحتمية توحيد الطاقات الطبيعية والبشرية لجبهتى الشام ومصر ضد كافة التحديات والعداءات الخارجية وهو ما سعى حثيثاً وبلا تردد نحو تحقيقه برغم ما تعرض إليه من مخاطر وافتراءات تصدى لها كالطود العظيم فى مواجهة رياح الفتن والضغائن .

ويبدو أن صلاح الدين قد شرع فى استثمار نتائج هذه الحملة أن يركن إلى مسألة المهادنة مع الأعداء فقام بالهجوم على المعسكر الصليبي فى بلاد الشام وتمكن من استرداد " غزة " سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م واتجه بعدها جنوباً للسيطرة

على الخط التجارى الممتد من أعلى خليج العقبة (أيلة) وحتى جنوب البحر الأحمر (اليمن) .

وتشير المصادر الأجنبية إلى أن الناصر صلاح الدين الأيوبي تحول من الدور الدفاعى إلى الدور الهجومى ليس فقط فى إطار العمليات الحربية على جبهة الشام وطول ساحل البحر الأحمر بل أيضاً فى إطار العلاقات السياسية والاقتصادية خاصة بعد استقرار أمور الحكم له فى القاهرة التى سوف تصبح فى غضون بضع سنوات - بعد وفاة نور الدين محمود سنة ١١٧٤م - أقوى عاصمة إسلامية للدولة الأيوبية المترامية الأطراف ، فتذكر لنا أن صلاح الدين بعد تأمينه وسيطرته على البحر الأحمر اتجه شمالاً إلى حوض البحر المتوسط مهدداً بالقيام بحملات بحرية ضد أملاك الإمبراطورية البيزنطية إذا لم يرسل إليه الإمبراطور جزية سنوية .

ويبدو أن الوزير صلاح الدين الأيوبي كان على موعد مع القدر بعد أن فرغ من ضبط مقاليد الأمور فى مصر والتى كان آخرها التصدى لحملة وليم الثانى ملك صقلية التى وصلت إلى ميناء الإسكندرية فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وكذلك إخماده لثورة كنز الدولة فى جنوب مصر التى كانت آخر محاولة لإحياء الدولة الشيعية (الفاطمية) فى مصر .

فما كاد صلاح الدين أن يفرغ من درء هذه الأخطار حتى وجد نفسه فى مواجهة أكبر مشكلة لتحقيق مشروعه الوحدوى بين جبهة الشمال فى الشام وجبهة الجنوب فى مصر إذ توفى السلطان نور الدين محمود فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، وذلك فى أعقاب وفاة عمورى الأول ملك بيت المقدس وقد خلف نور الدين فى الحكم ابنه الصالح إسماعيل الذى كان قاصراً عن إدارة أمور الدولة بمفرده نظراً لصغر سنه مما أحدث نوعاً من الفراغ السياسى والخلافات الداخلية

حول الوصاية على العرش ، والتي غالباً ما تكون التذر الأولى لانتهيار أى دولة وعودتها لنقطة البدء فى بنائها السياسى ، ولذا كان لزاماً على صلاح الدين القدوم إلى دمشق ، وإن كان صلاح الدين لم يشأ أن يظهر رغبته الجامحة فى السير إلى الشام أمام هؤلاء الأمراء حتى لا يضعف حماسهم فى التعاون معه لإعادة الاستقرار إلى البلاد وتوحيد الجبهة الداخلية الشامية ، فتوجه إلى " أيلة " وكان أميرها من جملة الأمراء الذين وجهوا إليه دعوة للقدوم إلى الشام ، ومنها إلى " دمشق " التى دخلها فى نهاية عام ١١٧٤م دون حصار معلناً ولاءه لابن سيده نور الدين محمود .

هكذا بدأ مشروع الوحدة بين مصر والشام والذى كان نواة الوحدة الإسلامية الكبرى من النيل إلى الفرات ، وهو نفس المشروع الذى كانت تتطلع إليه مملكة بيت المقدس تحت رعاية أرباب السلطتين الزمنية والدينية فى الغرب الأوروبى / الكاثوليكي .

لقد كان الصراع على السلطة فى الشام ينحصر فى ثلاثة عواصم كبرى هى : الموصل وحلب ودمشق ، وكانت الموصل يحكمها الملك سيف الدين غازى وأما حلب فكان يحكمها شمس الدين ابن الداية ، بينما كانت دمشق يسيطر عليها قائد الجيش شمس الدين محمد بن المقدم ، وتتنافس الثلاثة من أجل هدف واحد وهو ضم الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود إلى وصاية أحدهم ليحكم من خلاله بلاد الشام بأسرها .

أما صلاح الدين فقد بدأ مشروعه الوحيدى بإسباغ الصفة الشرعية على نظامه السياسى فأرسل إلى الخليفة العباسى المستضى بأمر الله فى بغداد يعرض عليه ما أنجزه من الفتوحات والجهاد ضد الصليبيين ، وإنهاء حكم الشيعة

فى مصر ، وإعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة ، طالباً منه تقليداً بحكم مصر والشام واليمن وما يضاف إليها بالفتوحات .

وفى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م أتت رسل الخليفة العباسى بالتشريف والأعلام بالسلطة على مصر والشام وغيرهما لصالح الدين الذى شرع فى تنفيذ مشروعه بالقضاء أولاً على الخلاف المقدم بين أمراء الشام المتنافسين على مصالحهم الشخصية إذ أرسل لهم قائلاً : " لو علم (الملك نور الدين) أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلى لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ... " .

كانت أولى خطوات صلاح الدين فى توحيد الجبهة الشامية والمصرية هى ضم دمشق بعد أن جاءت الاستغاثة من قائد الحامية (ابن المقدم) بسبب تهديدات الصليبيين وأطماعهم فى دمشق وأعمالها مثل بانياس ، فاتجه صلاح الدين واستولى عليها فى نفس العام وأعلن فى رسالته لأمير دمشق ابن المقدم " إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم وللبيت الأتابكى - أعلاه الله - إلا ما حفظ أصله وفرعه أو دفع ضرره وجلب نفعه ، والوفاء إنما يكون بعد الوفاة .

ولما استقر حكم صلاح الدين فى دمشق سار إلى " حمص " واستولى عليها عنوة وأمن أهلها ، ثم رحل إلى " حماة " فاستلمها من صاحبها الأمير عز الدين جرديك صلحاً ومعها القلعة بعد أن اختلف معه صاحب حلب واتهمه بالتآمر .

وفى نفس السنة ٥٧٠هـ / ٣٠ ديسمبر ١١٧٤م اتجه صلاح الدين إلى حلب وحاصرها فى الثالث من جمادى الآخر فقاتله أهلها أشد قتال إلا أنه فشل فى دخولها بسبب الدعم المعنوى من الملك الصالح إسماعيل لأهالى حلب التى فرض عليها الحصار لأكثر من شهر ثم أمر برفعه بعد أن تحالف الصليبيون مع صاحب حلب

بعد أن أدركوا خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب ، وتعرض صلاح الدين فى هذه الأثناء إلى محاولات اغتيال من جانب طائفة الإسماعيلية الحشاشين بزعامة " سنان " إلا أن صلاح الدين لم ينس لهم ذلك فأغار على مناطق تجمعهم فى " السماق " .

وفى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م نجح صلاح الدين فى هزيمة قوات حلب الموالية للصالح إسماعيل بقيادة كمشكين ، والتي تحالفت معها قوات الموصل بقيادة سيف الدين غازى وتكبيدهم خسائر فادحة وأسر منهم عدداً كبيراً ، وبعد حصار شديد على حلب استمر حتى نهاية سنة ٥٧١هـ وبداية ٥٧٢هـ سنة ١١٧٦م انتهت فيها المناوشات العسكرية باتفاق بين الجانبين يقضى بأن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل وأن تكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوباً ثم توجه بعدها صلاح الدين لتأديب طائفة " الحشاشين " وحاصرها بضعة أيام ثم عاد إلى دمشق ومنها إلى عاصمة ملكه - القاهرة - بعد أن ترك أخاه توران شاه على رأس جيش قوى فى بلاد الشام ليستطيع أن يواجه به تهديدات الصليبيين هناك .

وفى القاهرة أقام السلطان صلاح الدين الأيوبي - ملك مصر والشام - حوالى ست سنوات من عمره (٥٧٢ - ٥٧٧هـ / ١١٧٦ - ١١٨١م) سخرها فى تحصين القاهرة ، ودمياط ، والإسكندرية فضلاً عن الحصون والقلاع التى كانت من عوامل حماية البلاد ضد الأخطار الخارجية كما اهتم ببناء الأسطول المصرى ليكون درعاً بحرياً فى مواجهة غارات الصليبيين .

هكذا برهنت الأحداث الجارية فى مصر والشام على صحة رؤية صلاح الدين الأيوبي لنظرية الأمن العربى / الإسلامى والتي تمثلت فى حتمية الوحدة بين جبهتى الشمال والجنوب كى لا تنفرد القوات الصليبية بإحداهما على حساب الأخرى

وأن "مصر" يجب أن تكون مركزاً للعمليات الحربية لا مؤخرة للجيش باعتبارها المدخل الحقيقي لتحقيق النصر في المعارك ومن ثم ينبغي أن يكون لها جيش قوى العدد والعدة لمواجهة التحديات العسكرية الصليبية .

وكان صلاح الدين أبعد في رؤيته للأمن العربى/الإسلامى من سلفه نور الدين محمود عندما أدرك بثاقب ناظره ضعف الدولة الفاطمية فى أيامها الأخيرة حتى صارت مصر خلالها قاب قوسين من احتلال الصليبيين لها بسبب تواطؤ الإدارة الفاطمية الحاكمة مع مملكة بيت المقدس وهو ما يكون عامل رئيس فى إضعاف جبهة الشمال لتصبح هى الأخرى فريسة سهلة أمام الصليبيين الذين يتلمظون شوقاً إلى تلك المساحة الجغرافية الكبرى الممتدة من غرب آسيا الصغرى وحتى الشمال الشرقى لأفريقية ، بعد أن حصرتها المقاومة الإسلامية فى الشريط الممتد من خليج الإسكندرية فى الشمال وحتى العقبة على البحر الأحمر .

لقد نجح صلاح الدين فى إقرار نظرية الأمن العربى /الإسلامى عن طريق توحيد جبهتى الشمال والجنوب بحيث بات على مملكة بيت المقدس أن تركز جهودها فى تأمين مستوطناتها من خلال تكثيف المنشآت والتحصينات والقلاع الحربية للدفاع عن نفسها بعد أن حاصرتها القوات الإسلامية وهددتها فى العمق بسبب قصر الخطوط الدفاعية الصليبية وقلة مواردها البشرية بحيث أصبحت التحصينات القوية والأسوار العالية هى البديل الطبيعى لهذا العجز فى عملية الدفاع والتأمين لحدود مملكتهم فى مواجهة موجات الهجوم للقوات الإسلامية من " الشمال " فى الشام و"الجنوب" فى مصر.

ومن الأهمية بمكان أن ننوه إلى حقيقة بالغة الدلالة فى الفكر السياسى لكل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي هى : أن "مصر" بجانب ما تتمتع به من موقع جغرافى حيوى وما تحويه من موارد وفيرة ، تتميز دون سواها

من بلدان العالم الإسلامى وبخاصة بلاد الشام بالوحدة العضوية لشعبها وكذلك الأساس الدينى المستقر بين مسلميها ومسيحييها - وهى الحقيقة التى أدركها صلاح الدين بصورة عملية حين مجيئه إلى مصر فى صحبة عمه " شيركوه " والتى طاف خلالها بأرجاء مصر شمالاً وجنوباً وتعرف طبائع المصريين التى تغرى أى قائد يريد أن يأمن على حكمه ، ويتطلع إلى إقامة دولة إسلامية كبرى تكون " القاهرة " عاصمة لها ومركزاً لقياد جيوشها .

وفى الوقت نفسه فإن مدن الشام - بوجه عام - كانت تتميز بعدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى حتى أن الصليبيين أنفسهم عانوا من ندرة الموارد الزراعية لدرجة أنهم كانوا يستوردون القمح من خارج بلاد الشام ، كما أنهم لم يجدوا فى السكان المسلمين والمسيحيين الشرقيين دعماً كافياً فى شئون حياتهم المعيشية خاصة أن المسيحيين أنفسهم كانوا طوائف مذهبية عديدة ، مثل الأرمن والنساطرة فى " الرها " والسريان فى " أنطاكية " والموارنة فى " طرابلس " وهم فى معظمهم من " الأرثوذكس " الذين اختلطوا طوعاً أو كرهاً بالمسيحيين الغربيين " الكاثوليك " الأمر الذى أدى إلى ظهور جيل مولد فى بلاد الشام عرف باسم " الأفراخ " (Pollani) فإذا أضفنا إلى هذه الفئات الاجتماعية الأقليات الأجنبية من الإيطاليين والفرنسيين والنمساويين وغيرهم ممن اشتغلوا بالتجارة أدركنا عدم الاستقرار والتآلف فى البناء الديموجرافى لبلاد الشام ، وهم ما أشار إليه أحد المعاصرين تفصيلاً فى كتابه " الاعتبار " حول " طبائع الإفرنج وأخلاقهم " وكيف أن بلاد الشام كانت مسرحاً لتفاعل العلاقات الاجتماعية المتضاربة بين الأوربيين والعرب وهو ما تبدو آثاره الثقافية على المجتمع الشامى حتى يومنا هذا .

... وبعد ، فإن أحداث هذه الحملة وغيرها من الحملات الصليبية تُطل على حاضرتنا المعاصر بدروس عالية القيمة إذا كنا نؤمن - نحن الباحثين - بضرورة التاريخ فى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها من جوانب الحياة الفردية والجمعية المرتبطة بقدراتنا الذاتية وإنجازاتنا الحضارية المشتركة على اعتبار أن المفاهيم التاريخية لا تتصل بالماضى فحسب بل هى سياق لأوضاعنا الراهنة " الحاضر " وروانا القادمة " المستقبل " ومن ثم فإن التاريخ - موضوع الدراسة - ينبئ أن عصر البطولة العربية يمكن أن يتجدد إذا أمسكنا بزمام أسباب هذه البطولة ، وأن زمن التفوق الحضارى يمكن أن يعيد نفسه ضمناً إن - نحن - أدركنا ما تحويه الحضارة العربية الإسلامية من عناصر هذا التفوق وذلك الإبداع وفوق هذا وذلك فإن أحداث الصراع بين الشرق العربى الإسلامى ، والغرب الأوروبى الكاثولىكى فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى تؤكد لنا أن الانتصارات التى أحرزها المجاهدون المسلمون فى هذه الحقبة التاريخية قد استندت - بقوة - إلى نظرية سياسية فذة تقوم على حتمية الوحدة بين الجبهات العربية الواقعة فى المنطقة الممتدة من النيل إلى الفرات ، ونبذ كل أشكال الفرقة والتشردم السياسى والمذهبى إذا كنا - بحق - نريد استرداد هويتنا التائهة وشخصيتنا الضائعة وعقيدتنا الغائبة .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: المصادر العربية :

- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
- الكامل في التاريخ (بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩ م)
ابن تغري بردى (جمال الدين أبو الحسن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، المطبعة الأميرية ، بدون تاريخ)
ابن حماد (أبو عبد الله محمد ، ت ١٢٣١ م)
- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (القاهرة ، دار الصحوة بدون تاريخ)
ابن شداد (بهاء الدين يوسف ، ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)
- النواذر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ، ١٩٦٤ م)
أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م)
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، الجزء الأول (بيروت ، دار الجبل ، ١٩٧٤ م)
أبو الفدا (المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
- المختصر في أخبار البشر (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧ م) " الجزء الثاني "
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ، بدون تاريخ)
ابن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٩٢ م)
- الإفادة والاعتبار تحقيق فيليب حتى (بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٩٩ م)
وليم الصوري
- الحروب الصليبية " ٤ أجزاء " ترجمة د. حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٩٤ م)

ثانياً: المراجع العربية :

- د/ إبراهيم خميس
- جماعة الفرسان الداوية (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٢ م)
أرنست باركر :
- الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (القاهرة ، دار النهضة العربية ، بدون تاريخ)
جونثان رايلي :
- الاستبارة فرسان القديس يوحنا ، ترجمة العميد ركن صبحي الجبلي (مشق ، ١٩٨٩ م)
د/ حسن حبشي
- نور الدين والصليبيون (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ م)
د/أفت عبد الحميد:
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق - بحث في ندوة التاريخ الإسلامي والإوسيط
(القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥) ص ٢٢٦-٢٥٧ .
- قضايا من تاريخ الحرب الصليبية (القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٨ م)
ستيفن رنسيمن
- تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت ، ١٩٩٣ م)

- د/سعيد عبد الفتاح عاشور
 - مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك (القاهرة ، ١٩٧٢م)
 - الحركة الصليبية " جزءان " (القاهرة ، ط ٩٣ ، ١٩٩٧م)
 - الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (القاهرة ، ١٩٩٧م)
 سميل . رسى
 - فن الحروب عند الصليبيين ، ترجمة وليد الجلاء (دمشق - دار طلاس ، ١٩٨٥م)
 د/ السيد الباز العرينى
 - الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٣م " الجزء الأول ")
 د/ سيدة كاشف :
 - صلاح الدين الأيوبي بطل وحدة الصف العربى الإسلامى (القاهرة ، ١٩٨٦م)
 د/ عليّة عبد السميع الجنزورى :
 - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٩٩م)
 - إمارة الرها الصليبية (القاهرة ، بدون تاريخ)
 د/ قاسم عبده قاسم (دكتور) :
 - الأيوبيون والمماليك (القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٦م)
 - الحملة الصليبية الأولى "نصوص ووثائق تاريخية " (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١م)
 د/محمد ضيف الله بطالينه
 - دراسات وبحوث فى جوانب التاريخ الإسلامى (الأردن ، مكتبة المنار ، ١٩٨٦م)
 د/ محمد مؤنس عوض
 - الحروب الصليبية - العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١م)
 د/ محمود عمران
 - السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الأول
 (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥م)
 د/ مصطفى الحناوى
 - فرسان اسبتارية القديس يوحنا ودورهم فى الصراع الصليبي الإسلامى
 (القصيم ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٣م)
 يوشع براور :
 - عالم الصليبيين ، ترجمة د/قاسم عبده قاسم (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١م)
 - الاستيطان الصليبي فى فلسطين ، ترجمة د/ عبد الحافظ عبد الخالق البنا
 (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١م)

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

Archer (T) :

-The Story of the Latin kingdom of jerusalem , London ,1894 .

Hamilton (B) :

-The Latin Church in the crusader states, London ,1980 .

Jonathan (P) :

- Aymeric ,patriarch of Antioch letter to Louis VII of France (1164).

- Translated and veprinted from the Original of European History
(philadelphia : Department of History ,University of pennsylvania
1894.vol 1 .no 414-17 .

King (E) :

- The Kinghts Hospitalles in the Holy Land, , London ,1931 .

Kinnamas (J) :

- Deeds of John an Manuel Comnenus , New York ,1967.

Michael:

- Histoire des Croisades, paris ,1829 .

Schlumberger :

- Campagenes du Roi Amaury de Jerusalem En Egypte. , paris 1906 .

Vasiliev (A):

-A History of the Byzantine Empire 2 vol .Madison, Milwauke 1964.

Wiet :

- L` Egypte Arabe, paris 1937 .

Zoe (O) :

- The Crusades (Les croisades) translated from the French by Anne
Carter , London ,1995 .

خصوصية مصر في النظرية السياسية لحكم خلفاء صلاح الدين الأيوبي

في ضوء أحداث الحروب الصليبية

(٥٨٩ - ٦٤٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢٤٩ م)

ب وفاة صلاح الدين الأيوبي في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ / ٤ مارس سنة ١١٩٣م بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الصراع بين المسلمين والصليبيين من ناحية ، وتاريخ العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوربي في العصور الوسطى من ناحية أخرى بعد أن توارت عن أنظار المؤرخين المعاصرين شخصية قلما يوجد تاريخ الجهاد الإسلامي بمثلا .

لقد خلف من بعد صلاح الدين خلفاً أضاعوا ميراثه التاريخي الفذ في مواجهة القوى الصليبية ، وتأسيس دولة شاسعة مترامية الأطراف وبدلاً من أن يتعاونوا على البر والتقوى حفاظاً على وحدة هذه الدولة العظمى تعاونوا بالإثم والعدوان على تقسيمها إلى مناطق منازعات وحروب داخلية فيما بينهم شغلتهم عن إتمام المشروع الحضاري الذي وضع لبنته صلاح الدين منذ قدومه إلى مصر في أواخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وتعهده بالرعاية حتى آخر عمره بحيث ما كان له حديث ، ولا نظر ، ولا اهتمام ، ولا ميل ، إلا إلى من يذكره ويحث عليه على قول أحد معاصريه .

يقول ابن واصل (ت ٦٩٧هـ) :

" لما توفي السلطان الناصر - رحمه الله - استقر في الملك بدمشق وبلاها المنسوبة إليها ولده الملك الأفضل نور الدين على ، وبالديار المصرية وما ينسب إليها الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب وبلاها الملك الظاهر غياث الدين غازي ، وباليمن عمهم الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب " ... ، هذا فضلاً عن بلاد وحصون كانت من نصيب عدد من بنى عموماتهم وأبنائهم مثل حمص والرحبة وتدمر وبعبك وغيرها " .

ويشير المؤرخ فى سياق روايته إلى خصوصية مصر فى الأطماع السياسية لخلفاء صلاح الدين بقوله :

" وعند الملك العزيز بمصر جمهور العساكر من الصلاحية والأسدية والأكراد ، وهو ما أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلّاتها " .
وعندما تطورت الأحداث فى مصر وحاولت بعض فرق الجيش انتزاع حكم مصر من الملك العزيز مستعينة فى ذلك برغبة الملك العادل فى الوثوب إلى دست السلطة مما دفعه إلى عقد الصلح بين الجيوش المتحاربة من ناحية والبقاء بجوار العزيز ليتصرف فى شئون مصر بوصفه حاكماً فعلياً للبلاد حتى شاءت التطورات التاريخية أن يلقى العزيز - ملك مصر - حتفه بعد رحلة صيد فى الفيوم فى ٢٦ رجب ٥٩٥هـ / ١١٩٨م وكان قد أوصى بحكم مصر من بعده لابنه الملك المنصور محمد .

وقد استطاع العادل فى أعقاب وفاة ابن أخيه العزيز أن يستولى على مقاليد الأمور فى مصر متذرعاً بدهانه السياسى وبما اشتهر به من "المكر" و"الصبر" وملوّحاً بالحرب دون الدخول فيها مع الملك الأفضل نور الدين الى دخل القاهرة فى ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م إذا أرسل إليه عمه إنذاراً نهائياً بعدم التدخل فى شئون مصر او الاستيلاء عليها - قائلأله : " أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة لأنها أعظم معقل الإسلام ، ولا تحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك " .

وفى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م دخل الملك العادل سيف الدين مدينة القاهرة ليكون وصياً على عرش مصر ثم ما لبث أن أعلن أمام جمهور الأمراء والفقهاء أحقيته بالسلطنة كاشفاً عن نيته المبيتة منذ وفاة أخيه الناصر صلاح الدين فى الإستيلاء على مصر ، وفى هذا يقول العادل :

" الملك ليس بالميراث ، وإنما هو لمن غلب ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الملك الناصر رحمه الله ، غير أنى تركت ذلك إكراماً لأخى ورعاية لحقه " وهكذا استطاع العادل منذ اللحظات الأولى لحكمه أن يرسى قواعد النظرية السياسية القائلة بأن : " الحكم لمن غلب " وخصوصية مصر للحفاظ على هذا الحكم .

ونفهم من الرواية التى ذكرها ابن واصل أن الميراث الصلاحي قد وُزع بصفة أساسية بين أولاده الثلاثة : العزيز عثمان (مصر)، والظاهر غازى (حلب) والأفضل نور الدين (دمشق) بينما لم ينل عمهم "العادل" سوى الكرك والشوبك وبعض مناطق أعالي العراق وهى إقطاعات لم تكن تتناسب مع طموحاته السياسية ومواهبه الذاتية فى الإدارة والحكم والحرب . ومن ثم فباته وظف مواهبه فى إزالة كافة العقبات التى تحول بينه وبين الوصول إلى عرش السلطنة وإعادة توحيد الدولة فى غضون بضع سنوات بعد أن باتت الولايات جميعها منفصلة عن بعضها مما يشجع القوى الصليبية المعادية على غزوها والافتراء بها واحدة تلو الأخرى .

ولاشك أن العلاقات المحتدمة بين الأخوة الأعداء من أبناء صلاح الدين وبخاصة العزيز عثمان فى مصر ، والأفضل نور الدين فى دمشق قد هينت الفرصة غير مرة أمام عمهم العادل (ت ٦١٥هـ / ١٢١٨م) لحكم مصر معتمداً فى ذلك على الوعد الدبلوماسى أحياناً وكثيرة والوعيد الحربى فى بعض الأحيان . وهو ما تشير إليه المصادر المعاصرة جملة وتفصيلاً .

"ولما استقر الملك العادل بدمشق سير إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع له فى الملك الأفضل ويسأله الاجتماع به وسأله أن يصالح أخاه ويعود " .

ولأن العادل كان يعلم مسبقاً أن "مصر" تراود أحلام الأفضل صاحب دمشق فباته لم يبخل عليه بدهائه ودبلوماسيته فى هذا الشأن وظل ينصحه

بالعدول عن منطق القوة العسكرية في ضم مصر إلى أملاكه قائلاً له دائماً:
"مصر لك متى شئت".

ومما يؤكد خصوصية مصر في التوجهات السياسية لخلفاء الناصر
صلاح الدين الأيوبي أن القوى الدينية والعسكرية في غرب أوربا كشفت هي الأخرى
عن توجهاتها السياسية والتي تمثلت في الإعداد الجيد لحملة صليبية جديدة
على "مصر" يكون هدفها المعلن "القدس" وهو ما أرخ له ابن واصل بقوله :
"ولما طال اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدأون
بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً " .

وهذه الرواية تتسق تماماً مع ما ذكره ابن شداد في معرض حديثه
عن توازانات القوى بين المسلمين والصليبيين إذ يقول :

" ولما علم الأفرنج ما تم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية
علموا أنه يملك بلادهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة فاجتمع الفرنج والروم
جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية " .

ومن استقراء الروايات السابقة يتضح لنا أن " الاستيلاء " على مصر
كان هدفاً رئيساً في المنظور السياسي/الاقتصادي/العسكري للقوى الحاكمة
في الغرب الأوربي والقوى الصليبية في بلاد الشام ليس في زمن خلفاء صلاح الدين
الأيوبي فحسب ولكن منذ هزيمة الصليبيين في معاركهم الشرسة مع القائد الفذ
صلاح الدين (سلطان العرب والمسلمين) ، وربما كان الهدف النهائي
للحملات الصليبية السابقة لهذه المرحلة التاريخية إلا أن الفجوة الشاسعة
بين "جيل القوة" في زمن "السلف" و"جيل الهشاشة" في زمن "الخلف"
ساعد إلى حد كبير على إبراز هذا الهدف الاستراتيجي وهو ما فطن إليه الملك العادل
وخلفاؤه الذين اتبعوه في فكره السياسي إلى نهاية العصر الأيوبي .

ومما يؤكد كذلك تلك الخصوصية فى الفكر السياسى لخلفاء صلاح الدين حرصهم الشديد على تأمين القاهرة والثغور المصرية بالقلاع والحصون والأبراج والأسوار لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب الصليبيين كما ركزوا على بناء أسطول قوى للدفاع عن الشواطئ المصرية وبخاصة فى دمياط ، والإسكندرية ورشيد وغيرها من المدن الساحلية .

والواقع أن البحرية المصرية قامت بدور حاسم فى الدفاع عن مصر ضد الهجمات البحرية الصليبية ونجحت فى التصدى لها والاستيلاء على عدد كبير من السفن المعادية المحملة بالمؤن والعتاد وأسر أعداد هائلة من البحارة الصليبيين مثلما حدث عند محاولة قوات الحملة الصليبية الخامسة غزو مصر واحتلالها عن طريق ميناء دمياط .

وكانت خطة الدفاع عن مصر ضد الحملات الصليبية نتيجة حتمية للحكام الأيوبيين فى مواجهة نتيجة حتمية مضادة من جانب الصليبيين وهى ضرورة الهجوم على مصر بعد أن تأكد لديهم استحالة الاسترداد الشامل لما فقدوه من أملاك - اغتصبوها فى فلسطين وسائر بلاد الشام فى زمن صلاح الدين - إلا بعد احتلال الأراضى المصرية بوفرة الثروات الطبيعية والمالية والبشرية التى تحقق لهم أحلامهم فى الشرق العربى /الإسلامى وتمكنهم من تثبيت أركان مملكتهم فى بيت المقدس .

وفى هذا المعنى يقول الكاتب اليهودى يوشع براور:

" إن الانتصار الكبير على مصر سوف يحقق خضوعها وإجبارها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط ترك المملكة (بيت المقدس) عند حدودها القديمة ، وكان تصور الصليبيين أنه بواسطة التحكم فى المملكة التى سوف تسحب حامياتها من الأرض المقدسة يمكن استعادة المملكة وإعادة تحصينها بفضل الجهود

الموحدة للعالم المسيحي ويمكن تمويل هذه التحصينات من التعويضات التي سوف تدفعها مصر " .

إذن " مصر " كانت محور تفكير خلفاء صلاح الدين الأيوبي مثلما كانت محور تفكير باباوات الكنيسة الكاثوليكية وقادة الحملات الصليبية الذين أدركوا بعد معركة حطين في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م أهمية مصر في ترجيح كفة الصراع بعد الفشل الذريع لأكثر حملة صليبية في التاريخ الأوربي قادها ثلاثة من أعظم ملوك تلك الفترة (القرن الثاني عشر الميلادي) وهم: ريتشارد الأول Richard 1 ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا وفرديريك الأول بربروسا Frederick 1 إمبراطور ألمانيا

ولسنا مبالغين إذا قلنا أن ريتشارد الأول (قلب الأسد) قد أدرك هذه الحقيقة في غضون معاركه مع صلاح الدين الأيوبي مما دفعه إلى عقد صلح الرملة في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م وفي ذهنه فكرة مختصرة هي ، أن من يرد سيادة الشرق فعليه بمصر أولاً وقبل كل شئ فهي المعين الذي لا ينضب في المجال الاقتصادي وصمام الأمن في المجال العسكري .

لقد نجحت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بيري Jean de Brienne ملك بيت المقدس والمندوب البابوي بلاجيوس Pelagius في الاستيلاء على مدينة دمياط (مفتاح مصر) في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م بعد حصار استمر تسعة أشهر أدى إلى سقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين وهو ما اعتبره أحد المؤرخين المعاصرين "مصيبة كبرى" إذ أن هذا البرج هو "قفل الديار المصرية" ، ولم يكن بإمكان الملك العادل تحمل تلك الصدمة فمات أثناء الغزو بعد أن أصابته الدهشة من هول تلك الأحداث ، وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، وفي هذا يقول ابن واصل :

" ..، وعظم عند الملك العادل قصد الفرنج لمصر وخاف عليها خوفاً شديداً " وفي الوقت الذي نجح فيه العادل في توطيد دعائم حكمه باستيلائه على مصر " أعظم معاقل الإسلام " كانت فكرة الاستيلاء على القدس من الأيوبيين ماتزال عالقة بأذهان الصليبيين والأوربيين وحين رأوا الملك العادل يعيد ترتيب البيت الأيوبي أدركوا أن ذلك سوف يعود بهم إلى أيام الصحوة العقيدية والعسكرية زمن صلاح الدين الأيوبي . وأدركوا كذلك أن " مصر " سوف تغدو مركزاً للتموين الروحي والمادي لكل القوى الإسلامية ، وأن من يحتل مصر بمواردها وإمكاناتها البشرية والطبيعية يستطيع تحقيق السيطرة الكاملة على كافة الأمصار العربية الإسلامية وفي مقدمتها القدس .

ولذا لم يكن غريباً أن يفطن العادل الأيوبي إلى خصوصية مصر في إدارة عملية الصراع بين المسلمين والصليبيين ، وهو ما فطن إليه أيضاً البابا إنوسنت الثالث Innocent III الذي أخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين والتي بدأت محاولتها منذ سنة ١٢٠١م عندما توجهت الفرق العسكرية الصليبية إلى البندقية كي تنقلهم سفنها الحربية إلى مصر ، ولكن بدلا من أن تتجه السفن إلى الثغور المصرية على البحر المتوسط اتجهت إلى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (القسطنطينية) على ضفاف البسفور . في أكبر مهزلة عسكرية في تاريخ الغرب الأوربي ، والتي مازالت كتابات المؤرخين والباحثين تتناول أحداثها في إطار الاتهامات المتبادلة بين القادة الصليبيين .

ويصف لنا ابن أبيك فداحة الفاجعة التي أصابت حاكم مصر في مقتل لحظة إبلاغه بسقوط دمياط في أيدي الفرنجة بقوله :

" وفي أول جمادى الأولى (٦١٥ هـ) أخذ الفرنج المنازل على دمياط وملكوا برج السلسلة . وكان هذا البرج قفل الديار المصرية فنفذ الملك الكامل إلى أبيه السلطان العادل صدر الدين شيخ الشيوخ يخبره بذلك ويستصرخه ويستجده . فلما اجتمع به وكان على حطة من المرض فعرفه . فدق (السلطان) بيده على صدر . فكان سبب وفاته " .

ولما مات العادل بدمشق في ٧ جمادى الآخرة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م خلفه في حكم مصر ابنه الكامل ، الذي ورث معظم صفات أبيه بما في ذلك منهجه السياسي الذي تجلى بوضوح في عروض الصلح التي تقدم بها إلى زعماء الحركة الصليبية والتي قرر فيها أن يحتفظ " بمصر " مقابل التنازل عن القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبي بحيث أن ما عرضه الكامل من تنازلات كان تزيد كثيراً على ما يمكن أن يعرضه حاكم أصابته هزيمة نكراء لا يمكن القيام بعدها لقواته كي تواصل القتال ! فقد عرض عليهم " تسليم القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجيبيل واللازقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط فلم يرضوا " ؟! .

فالمسألة إذن . لم تكن رغبة في " السلام " أو عجزاً عن " الحرب " بقدر ما كانت " مساومة " تمكنه من تأمين عرشه في مصر من ناحية ، والتفرغ لصراعاته السياسية والعسكرية مع حكام المنطقة العربية من ناحية أخرى مما جعله يبالغ في التودد إلى الفرنجة رغبة في تحقيق السلام معهم .

" ورسل الملك وأخوته مترددة إلى الفرنج في الصلح " .

وقد تناول المؤرخون خصوصية مصر فى الفكر السياسى للملك الكامل الأيوبى بصورة لا تدع مجالاً للشك فى أن خيار السلام كان مفروضاً على هذا الحاكم إلى حد جعله يكشف عن كافة أوراقه السياسية أمام القوى المعادية فى الشرق الإسلامى والغرب المسيحى من منطلق حرصه المطلق على أمن وسلامة مصر إذ أن احتلال الصليبيين لحاضرة العالم الإسلامى يعنى عنده " بوار الإسلام بالكلية " على قول ابن واصل .

وهو ما يؤكد مؤرخ آخر بقوله : " فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليها شئ من الممالك بعدها " .

ولهذا فإن الملك الكامل أرسل " سبعين رسولاً " إلى مختلف حكام الأقطار الإسلامية " يستحثهم " على معاونته فى قتال " الفرنج " وإنقاذ المسلمين والدفاع عن أمن مصر .

" فوصلت رسلهم إلى الملك الأشرف وهو يتجهز للمسير إلى نجدة أخيه السلطان الملك الكامل ليدفع الفرنج عن الديار المصرية " .

وفى تصورنا أنه برغم الجهود الدفاعية والمناوشات الهجومية للملك الكامل ضد الصليبيين والتى ساعد عليها تأييد حكام بنى أيوب فى الشام - فإن فكرة " الصلح " كانت قد نضجت وأينعت فى رأس الكامل وحن قاطفها على يد ملوك غرب أوربا ، وأن الاستعدادات العسكرية كانت نوعاً من الإدارة لخطط سياسية والمساعى الدبلوماسية أعدت سلفاً فى ضوء المراسلات بين القيادة السياسية فى مصر والقيادة السياسية فى ألمانيا ، وكذلك فى ضوء الحسابات الشخصية لطرفى معادلة الصلح - الكامل وفردريك - إذ أن خيار الحرب لم يكن يقوى عليه أحد من حكام المسلمين وفى مقدمتهم الكامل الأيوبى الذى " رأى أن يرضى الفرنج

بمدينة القدس " بعد أن " اشتدت قوة الفرنج " وصارت دمياط محصنة من جانبهم بطريقة لا يمكن أخذها بالقوة .

وعلى الجانب الآخر فى الغرب الأوربى كان فردريك الثانى Ferderik II قد أخذ شارة الصليب كى يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له فى اعتلاء كرسى الحكم فى ألمانيا إلا أن هذا البابا وافته المنية فى السنة التالية (١٢١٦ م) مخلفا وراءه المشكلة النهائية التى سبقت الإشارة إليها فى مجمع اللاتيران الرابع والذى استمع فيه إنوسنت الثالث إلى مزاعم المتنافسين على عرش الإمبراطورية الألمانية ثم أعلن حكمه النهائى لصالح فردريك الثانى .

وجاء من بعده البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) ليتبنى هذا المشروع الصليبي الكبير .

ويبدو أن فردريك الثانى بدهانه السياسى - استطاع أن يراوغ فى تنفيذ نذره الصليبي غير مرة متذرعا بمشاغله الداخلية إلا أن زواجه من " بولاتدا " ابنة حنا برين - ملك الصليبيين فى عكا - حمل الإمبراطور مسئولية الدفاع عن ميراثه الشرعى فضلا عن أن البابوية لم تأل جهدا فى مطاردة هذا الداهية حيثما كان كى يوفى النذر الذى أخذه على نفسه، بل إن البابا جريجورى التاسع Greogery IX قام بتوقيع أقصى عقوبة كنسية على فردريك (الحرمان البابوى) حتى يجبره على الخروج بحملة صليبية إلى " مصر " مضحيا بطموحاته السياسية فى القارة الأوربية وأملكه فى ألمانيا وإيطاليا وصقلية وما يضاف إليها من أراض جديدة .

وفى غضون تلك الأحداث المترتبة على نتائج الحملة الصليبية الخامسة التى آلت إلى فشل الفرنجة فى احتلال مدينة دمياط وعودة القوات المصرية إلى الانتشار فى أرجائها فى اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٢٢١ م - جاءت الرياح السياسية الأوربية بما لا يشتهى الكامل الأيوبى ، إذ علم من معاونيه أن ثمة حملة

صليبية جديدة فى طريقها إلى مصر تحت قيادة الإمبراطور فردريك الثانى الذى اشتهر بلقب " أعجوبة الدنيا " وتحلى بمظاهر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية حتى قيل فيه أنه كان يصلى ويتلو القرآن ويتظاهر بقربه من الإسلام والمسلمين . وفى الوقت نفسه كان يزدرى الأنبياء وأصحاب الرسالات السماوية ويصفهم بالأدعياء .

وتظالغنا المصادر بأن المراسلات الودية بين الكامل الأيوبي وفردريك الثانى وانتظام السفارات بين الطرفين منذ سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ظلت شبه مستمرة حتى جاء الإمبراطور إلى الشرق فى سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م على رأس جيش صغير لا يزيد عن ستمائة فارس لكى يسترد بيت المقدس برغم أنه كان شديد الكراهية للبابوية التى أصدرت ضده قرار الحرمان حتى يفى بنذره الصليبي .

وثمة روايات عديدة عن اتفاقية الصلح بين الكامل وفردريك الثانى فى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م من بينها رواية ابن واصل التى تقول :

" تقرر بينهما أن يسلم (الكامل) إليه القدس على شريطة أن يبقى خراباً ولا يجدد سورته وأن لا يكون للفرنج شئ من ظاهره البتة بل يكون جميع قراياه للمسلمين . وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين وشعار المسلمين فيه ظاهر ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط ويتولاه قوام من المسلمين واستثنى الفرنج قرايا معدودة هى طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس " .

ويبدو أن المؤرخ ابن واصل كان راضياً - إلى حد كبير - عن المنهج السياسي للملك الكامل وأسلوب معالجته لقضية القدس باعتباره صاحب السلطة الزمنية والدينية بل إنه يرى في تنازل الكامل عن القدس ورقة سياسية رابحة تكشف بجلاء أن مصر كانت هي الشغل الشاغل في الفكر السياسي لخلفاء صلاح الدين الأيوبي وأنها كانت الدافع الحقيقي لكل ممارسات الكامل مع الجانب الآخر (الصليبيون) .

بل إن المؤرخ لم يشأ أن يدفع عن الكامل مسئولية ثورة الرأي العام الشعبي ضده فوصف هذا الفعل السياسي غير المسبوق بأنه مجرد " هفوة " ! مبرراً ذلك بقوله : " كان الملك الكامل يعلم أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له كان متمكناً من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه .

بينما نقرأ في السلوك ما يكشف عن رؤية مؤرخنا المقرئ لحقيقة هذا الصلح وإلى اعتباره نوعاً من " البلاء " حل بالمسلمين و " نفرت منه قلوب الناس " .

يقول شيخ المؤرخين (المقرئ) :

" وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان فعز عليه ذلك ، .. ، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار " .

وهذه الروايات وغيرها تضع الباحث أمام نوع من المفارقات فى كتابات المؤرخين الذين رصدوا هذا الحدث بنوع من الريبة والحذر الشديدين مما يجعله يتساءل : لماذا لم نقرأ عن هذه المفارقات عند تعقيب هؤلاء المؤرخين على " الصلح " الذى أبرمه صلاح الدين الأيوبي مع ريتشارد الأول ؟

وعلى كل فإن تلك الحجج والأسانيد التى قدمها المؤرخون فى حولياتهم لتبرير سياسة التخاذل والمهادنة التى سار عليها الملك الكامل لا يمكن للباحث أن يعول عليها فى تبرئة هذا الحاكم أمام محكمة التاريخ إذ أنه من غير المعقول أن يسلك الكامل طواعية كل ما فتحه المسلمون أيام جده صلاح الدين بعد معارك استرداد طويلة ومريرة استمرت عشرات السنين وسقط فيها آلاف الشهداء فضلا عن الاستنزاف المستمر للموارد والثروات لخدمة المجهود الحربى ، ثم نذهب مع القائلين بأنه كان سابقا لعصره عندما دعا بدعوة التسامح والتسامى بعيدا عن التعصب المقيت الذى كان سمة الحروب الصليبية .

ولسنا كذلك مع رأى القائل بأن التفريط فى القدس والساحل كان ضمن " خطة استراتيجية بعيدة المدى " للحفاظ على " القلب " مصر " سليما معافى . فمن المعروف أن "مصر" كانت هدفا محوريا فى الأيدولوجية الصليبية منذ قدوم الحملة الأولى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى وحتى تحرير آخر معاقل الصليبيين فى عكا فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، وأن مصر كانت تعيش أسوأ مراحل ضعفها السياسى ، والاقتصادى ، والعسكرى فى نهاية حكم الفاطميين مما يثير شهية الصليبيين لاحتلالها واقتراسها وبرغم الكثافة العالية للأخطار والمؤامرات والفتن التى احاطت بصلاح الدين الأيوبي داخليا وخارجيا فإن خصوصية مصر وأهميتها فى فكره السياسى لم تشغله لحظة عن التفكير فى تحرير القدس وغيرها من الإمارات الصليبية الساحلية وهى المعادلة الصعبة

التي لا يقوى عليها إلا قائد عسكري من طراز صلاح الدين الذي "كان حبه للجهاد والشفغ به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً" على قول أحد المعاصرين .

لقد كان المشهد السياسي والعسكري قبيل إبرام صلاح الدين الأيوبي الصلح مع ريتشارد مختلفاً تماماً في أنظار المؤرخين الذين عاصروا الصلح بين الكامل الأيوبي وفرديريك الثاني . كيف ؟

كانت ثمة وحدة سياسية بين مصر والشام والعراق تحت قيادة صلاح الدين فضلاً عن امتداد نفوذه إلى مناطق أخرى شملت اليمن وبلاد الحجاز واليمن .

ولم تكن مصر في العقلية السياسية لصلاح الدين مجرد مركزاً للجاء والسلطان أو مستودعاً للإمداد والتموين ، وإنما كانت صاحبة الدور الريادي في إدارة عجلة الحرب والجهاد ضد الصليبيين ناهيك عن دورها الفكري والديني والثقافي في تعبئة وشحن الروح المعنوية للجماهير العربية الإسلامية في مواجهة قوى البغي وجحافل الشر الوافدة من الغرب الأوربي /الكاثوليكي لإجهاض حركة المقاومة الإسلامية عن طريق ضم مصر إلى أملاك الوجود الصليبي أو تحييدها في عملية الصراع لما تمثله من ثقل سياسي واقتصادي وعسكري في المنطقة العربية بأسرها .

" .. ولما علم الفرنج ماتم للسلطان (صلاح الدين) من استقامة الأمر في الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم . وكان الرأي العام الشعبي في مصر متعاطفاً إلى حد كبير مع القيادة السياسية الملهمة التي تحقق أهداف المسلمين القومية بعد فترة طويلة من فقدان الثقة في الرموز السياسية السلبية التي بلغت درجة عالية من الهشاشة في مجاهدة الأعداء وكأنهم يريدون بقاء الفرنج "ليثبت عليهم ما هم فيه" على قول أحد المعاصرين .

أضف إلى هذا كله أن صلاح الدين الأيوبي أقام صلحه مع ريتشارد الأول على أساس إنجازهِ العسكري المذهل في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م (معركة حطين) وانتصاراته السياسية المبهرة على قوات الحملة الصليبية الثالثة التي شاركت فيها جيوش الغرب الأوربي - بينما كان الكامل الذي وصفه أحد معاصريه بأنه "أسوس" حكام عصره لا يمتلك سوى خيار واحد هو مايمليه عليه الأعداء من شروط الصلح التي حققت بجرة قلم مالم تحققه الحملات الصليبية السابقة واللاحقة بجرار جيوشها. ومن المفيد هنا تلاوة ماكتبه المقرئزي تعقيباً على اتفاقيتي الصلح في زمن كل من صلاح الدين الأيوبي وابن أخيه الكامل الأيوبي .

فهو يقول عن صلح الرملة :

"وأهلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان (صلاح الدين) بالقدس مجتهد في عمارته . وفي جمادى الآخرة ملك الفرنج قلعة الداروم وخرج العسكر المصري يريدون السلطان فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم . وقد طمعوا فقصدوا المسير إلى القدس ثم اختلفوا ونزلوا بالرملة وبعثوا رسلهم في طلب الصلح فبرز السلطان من القدس في عاشر رجب وسار إلى يافا فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئاً عظيماً وتسلم السلطان القلعة وأخرج من كان فيها من الفرنج ،...، وعزم على لقاء الفرنج فاختلف عليه أصحابه وأسمعه بعضهم كلاماً جافياً فأنثنى عن ذلك وقدم عسكر مصر فخرج إلى الرملة وقع الصلح بين السلطان والفرنج " .

بينما يقول عن صلح يافا :

"وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج (فردريك الثاني) وخاف من غائلته عجزاً عن مقاومته . وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر (من الصلح) وبعث السلطان (الكامل) فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج

فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان . فعز عليه ذلك . فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار .

وبعث الإمبراطور (فردريك الثاني) بعد ذلك يطلب تبنيين وأعمالها فسلمها الكامل له . فبعث يستأذن في دخول القدس فأجابه الكامل إلى ماطلبه .

بل أن المقرئ يشرح إلى مفارقة عجيبة سبقت إبرام هذا الصلح وهي أن الكامل خرج على رأس حين لمحاربة ابن أخيه الملك المعظم عيسى بسبب مراسلة الأخير لحاكم مسلم (جلال الدين خوارزم شاه) "وقطع الخطبة للملك الكامل" وفي نفس الوقت احتفى الملك الكامل بمبعوث الملك فردريك الثاني "وأكرمه إكراماً زائداً" ..، واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج فيها من تحف الهند واليمن ، والعراق والشام ، ومصر والعجم ،...، وفيها سرج من ذهب وفيها جوهرة بعشرة آلاف دينار مصرية " !

فهل يجوز للباحث أن يأخذ بالرأى القائل أن " فطنة الكامل " سبقتة إلى ابتهاج تلك الفرصة النادرة لكي يحتفظ بحكم مصر ومصالحه الاقتصادية مع القوى الصليبية في ساحل بلاد الشام والمدن التجارية الإيطالية .

وماذا لو علمنا أن الشعوب الإسلامية (القوى الإنتاجية) كانت تعارض هذا الصلح لما فيه من "الوهن" و"البلاء". والأدهى من هذا أن الكنيسة الكاثوليكية كانت غير راضية عن هذه الاتفاقية بحكم تعصبها المقيت ضد المسلمين الوثنيين .

وعلى مدى سنتين من أحداث الحملة الصليبية الثالثة كانت الحرب فيها سجالا بين الخصمين العنيدين - صلاح الدين الأيوبي وريتشارد الأول - لم يتوان صلاح الدين لحظة واحدة عن حماية بيت المقدس برغم ما أصاب جنوده من شدة الجهد والتعب فى مواجهة أعتى جيوش الغرب الأوربي فى العصور الوسطى .

وفى نفس الوقت أدرك ريتشارد حجم الخسائر البشرية والمالية التى تكبدها فى تلك الحرب التى لم تحقق له وللكنيسة شيئا يذكر من المكاسب المنشودة مما دفعه إلى طلب الصلح حفاظا على ماء وجهه أمام الدين ، وخوفا على سلامة نفوذه السياسى فى إنجلترا . ورغم أن صلاح الدين كان مستعدا لمواصلة الحرب ضد الصليبيين إلى آخر يوم فى عمره فإنه أثر قبول الصلح إشفاقا منه على جنوده ونزولا على رغبة قواده الذين سنموا من طول زمن المعارك مع الأعداء .

"..، وكان يوم الصلح يوما مشهودا . وإذا كنا نتفق مع مقولة أحد الباحثين - إلى حد ما - فى " أن الكامل عندما أقدم على تسليم القدس . لم يكن فى ذلك أى تفريط فى الحقوق أو القضية برمتها بقدر ما كان خطة تكتيكية ضمن سياسة استراتيجية تهدف إلى إنقاذ مصر من الوقوع فى قبضة الصليبيين وبالتالي الحفاظ على الشام " فإننا نختلف - إلى حد كبير - معه فى قوله أن الملك الكامل : " لم يكن مبتدعا فيما أقدم عليه بل سبقه إلى ذلك عمه السلطان الناصر صلاح الدين " .

فهل من المعقول قياس اتفاقية يافا فى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م - بمقدماتها ونتائجها المهيئة - على اتفاقية صلح الرملة فى سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ؟ لقد كان صلاح الدين يمتلك الخيارين (الحرب والسلام) واختار الخيار الثانى من منطلق القوة مصداقا لقوله تعالى : " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها " ، وليس من منطلق الضعف بين الذين تفرقوا وتنازعوا من خلفاءه .

ورب سائل عن الدوافع الحقيقية لتفريط الملك الكامل فى القدس والمسجد الأقصى متحدياً بذلك المشاعر الروحية لملايين المسلمين فى أنحاء العالم . ومستنداً فى ذلك إلى فتوى لأحد الفقهاء الشافعية بشأن الشروط الشرعية للهدنة وجوانبها التوثيقية الأخرى .

ولطى استند هنا إلى ما كتبه ابن واصل فى " مفرج الكروب " ونقله عنه المقرئى فى " السلوك " من رد الفعل الشعبى الغاضب على هذا الصلح المهين لدرجة أن " ارتفع بكاء المسلمين فى المساجد ، وعلا صراخهم ، وأقاموا المآتم لتقبل الغزاء فى هذا المصاب الجلل والخطب العظيم " .

وتقول الرواية التى ورد ذكرها أيضاً فى المقالة التى كتبها القاضى ابن أبى الدم على هذا النحو :

" ومتى مهد المولى السلطان الكامل خلد الله أيامه بلاد الشرق ، واتفقت كلمة الملوك على سلطنته والطاعة له استعاد البيت المقدس من يد من هو فى حوزة من الفرنج فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة .

وعلى الجانب الآخر تأتى رواية ابن واصل التى تقول :

" بلغنى أن الإمبراطور (فردريك) قال: لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج ، لما كلفت السلطان (الكامل) شيئاً من ذلك ، ومالى غرض فى القدس ولا غيره " !

وإذا سلمنا - سلفاً - بأحاديث المؤرخين المسهبة حول السمات الثقافية والأخلاقية والعقلية المشتركة بين طرفا اتفاقية الصلح (الكامل الأيوبي وفردريك الثانى) - تلك الأحاديث التى رفعتهما إلى مصاف " العباقرة " الذين لم يفر فريهما أحد فى نبوغهما السياسى ، فهل تلك الروايات التى ساقها المؤرخون فى إطار ذكرهم الاتفاقية يمكن قبولها كأساس علمى لفهم الدوافع الحقيقية لتلك الاتفاقية .

ففى رأينا أن " خصوصية " مصر فى الفكر السياسى للملك الكامل الأيوبى هى التى دفعته إلى الاستنجد بالإمبراطور فردريك الثانى فى مواجهة أطماع أخيه المعظم عيسى وحلفائه من الخوارزمية وتعهد له مقابل ذلك أن يتنازل له عن بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل الأمر الذى انتهى باتفاقية يافا فى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م .

ويؤكد هذه الخصوصية ما حدث بعد هذه الاتفاقية بخمسة عشر عاماً (٦٤١هـ/١٢٤٣م) بين الملك الصالح إسماعيل وأخيه الملك الصالح أيوب ، عندما اشتد الصراع بينهما مما دفع الأول إلى طلب النجدة من الصليبيين مقابل تسليم القدس لهم لضمان تأييدهم له ضد الآخر .

فالقدس التى طهرها صلاح الدين الأيوبى من دنس القوات الصليبية - بعد أن عاثوا فيها الفساد - بحيث عد ذلك من أعظم "مناقب" هذا القائد العظيم - ظلت فى زمن خلفائه ورقة سياسية يتلاعبون بها فى مواجهة الأخطار التى تهدد عروشهم الوثيرة ومكاسبهم الشخصية الوفيرة وأملاكهم الواسعة فى مصر والشام ولم لا ، والملك الصالح أيوب يقول لابنه تورانشاه وهو على فراش المرض :

"يا ولدى. إن الديار المصرية هى كرسى المملكة وبها تستطيل على جميع الملوك". ولم يكن الملك الكامل الذى " عمرت فى أيامه ديار مصر عمارة كثيرة " بغافل عن حقائق الصراع الإسلامى /الصليبي وما يدور فى الأوساط السياسية والعسكرية والدينية فى الغرب الأوروبى وهو الذى وصفه ابن واصل وغيره من المؤرخين بالهيبة ، والحلم ، وسداد الرأى ، وحسن التدبير .

كان الملك الكامل يدرك بفكره السياسى أن "مصر" هى درة العقد فى الأطماع التوسعية الصليبية على اعتبار أنها الهدف الرئيسى لكافة الشرائح الاجتماعية (الكنسية والعسكرية والمدنية) التى تتوق شوقاً إلى ثروات الشرق

فى إطار الخطاب الدينى المعطن من قبل البابوات لتعبئة هذه القوى الاجتماعىة فى شن الحملات العسكرية ضد المسلمين .

فالحملة الصليبية الرابعة لم تكن سوى مقدمة استراتيجية لغزو مصر للسيطرة على حركة التجارة العالمىة بين الشرق الأسىوى والغرب الأوربى يدل على هذا أن تجار المدن الإيطنالىة (جنوة - بيزا - البندقىة) والبورجوازىة الأوربىة كانوا مهينين جميعا لاحتلال أى ميناء تجارى فى حوض البحر المتوسط بغض النظر عن الجنسىة أو الديانة الخاصة بالسكان القاطنين فى تلك الموانى .

وفى الوقت الذى كان فيه البابوات والدعاة الكنسىون يرفعون شعار الصليب هدفا نبىلا لتلك الحملات العسكرية الغاشمة ويتوعدون ملوك أوربا بالويل والثبور لمن يتقاعس منهم عن أداء واجبه المقدس فى فلسطين ، كانت القوى السىاسىة والتجارىة مشغولة بوضع استراتيجيات اقطناصىة سرىة لتوطيد علاقتها الاقطناصىة والسىاسىة مع حقام بنى أيوب ضاربين بقرارات الحرمان البابوى عرض الحائط .

وإذا كانت الكنيسة الكاثولىكىة يعنىها البعد العقيدى وإرضاء الرب من خلال دعوتها شبه المستمرة لتلك الحملات فىماذا يمكن تفسير الرفض البابوى لعرض الملك الكامل الأيوبى بالانسحاب من دمياط (الدنيا) مقابل القدس (الآخرة) .

وهل كانت هذه القوى مجتمعة تستطيع صبرا على التضحية بمصالحها الاقطناصىة فى مصر من أجل مصالحها الروحية فى فلسطين ؟!

بيد أن الملك الكامل الأيوبى لم يكن فى وضع يسمح له بالدخول فى مواجهة عسكرية مع الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى الذى كان بدوره كارها للحرب ضد المسلمين باسم الكنيسة الكاثولىكىة خاصة أنه نشأ وترعرع فى ظل مبادئ الدين الإسلامى الحنيف فى جزيرة صقلية ، وكان واسع العلم والمعرفة بالثقافة العربىة ، وفى هذا يقول نورمان كانتور موضحاً علاقته بالكنيسة :

" كان فردريك (١٢١٥-١٢٥٠م) رجلاً غريباً " عجيبة الدنيا " الذى يخرج عن النظام الأخلاقى فى زمانه . ولكنه كان مصاباً بجنون العظمة يعتبر نفسه فوق المستويات الأخلاقية المسيحية، وقد اعتبرته البابوية عدوها اللدود " .

ويضيف قائلاً: "إذا كان فردريك قد أخذ شارة الصليب ليضمن تأييد إنوسنت الثالث . ولكنه كان عازفاً عن الوفاء بقسمه الصليبي لأنه كان يتوق إلى شن حملته على شمال إيطاليا . وأخيراً فى سنة ١٢٢٨م ذهب فعلاً إلى الأراضى المقدسة وهو مازال تحت وطأة الحرمان البابوى بسبب عدم وفائه بالقسم الصليبي من قبل . ولم يفعل شيئاً سوى التظاهر بقتال المسلمين ، ثم هرول عائداً إلى جنوب إيطاليا حيث قام جيش بابوى بغزو أراضيه على الرغم من أن نجاح الغزو كان محدوداً " .

فهل ثمة شك فى أن الملك الكامل كان بدهائه السياسى وتخاذله العسكرى كان يدرك حقيقة الظروف الداخلية فى الغرب الأوروبى بين فردريك الثانى والبابوية والتي استغلها الكامل بدوره وجعلت فردريك الثانى يتظاهر بميوله للدين الإسلامى وهو ما تصوره بعض المؤرخين فى إطار عقيدى لا دبلوماسى والتي استغلها فى تحقيق مصالحه الشخصية المتركرة أساساً فى حفاظه على كرسى الحكم فى مصر .

وربما لعبت الظروف الداخلية المعاكسة دوراً فى الضغط المعنوى على الملك الكامل أدى إلى إلحاحه المتكرر فى عرض القدس والفتوح الصلاحية على الصليبيين أثناء الحملة الخامسة ، ثم عرضها على الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى الذى قبل العرض شاكراً فضل الكامل فى حفظ هيئته وحرمة بين ملوك البحر .

وتنحصر هذه الظروف فى المؤامرات التى دبرها الأكراد العاملين فى الجيش المصرى بقيادة "ابن المشطوب " ، وكذلك قبائل البدو والعربان الذين حاولوا الصيد فى المياه التى عكرها الصليبيون فى نيل دمياط ، فأغاروا على النواحي المتاخمة لدمياط ، وقطعوا السبل على الأهالى ، وعاثوا فى القرى فساداً "فكاتوا أشد

على المسلمين من الفرنج " على قول المعاصرين وقد دفعت تلك المؤامرات والفتن من جانب الأكراد والأعراب الملك الكامل إلى التقهقر أمام جحافل الصليبيين والانسحاب إلى أشموم (أشمون) طنّاح - خوفاً من الوقوع في الأسر على أيدي الغزاة ، أو الموت غيلة على أيدي بعض أمرائه . فضلاً عن هذا كله فإن أخوة الكامل في بلاد الشام تباطنوا في تلبية نداء الجهاد ضد الصليبيين برغم كثرة مراسلاته إليهم وبخاصة المعظم عيسى والأشرف موسى اللذين تحالفا من الخوارزمية (المغول) للوقوف معهما ضد الملك الكامل بدلاً من الوقوف معاً في خندق واحد ضد الصليبيين الذين صاروا قاب قوسين أو أدنى من احتلال مصر هدفهم الرئيسي في الشرق العربي / الإسلامي .

وفي أعقاب وفاة الملك الكامل الأيوبي (٦٣٥هـ / ١٢١٨م) انقلب الجنود الخوارزمية على الصالح نجم الدين أيوب وكادوا أن يقتلوه مما دفعه إلى الهروب من محل إقامته في أعالي العراق إلى سنجار " خوفاً على نفسه " .

وما لبث الصالح نجم الدين أيوب أن نجح في استعادة ولاء الخوارزمية وتمكن من هزيمة أمير الموصل لكي يوجه ناظرية شطر " مصر " .

وذلك بعد سلسلة من الأحداث والصراعات الدامية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي الذين ارتضوا لأنفسهم الذل والهوان في مواجهة القوى الصليبية في سبيل أن يحتفظوا بعروشهم الصغيرة والمتناثرة في أنحاء العالم العربي / الإسلامي دون أن يفكروا في توحيد صفوفهم وجمع شملهم بل على العكس فإنهم تفرقوا واختلفوا ودخلوا مع بعضهم البعض في حروب إقليمية ومؤامرات وفتن داخلية .

ولعل الرواية التي ذكرها ابن واصل عن الحالة السياسية لبنى أيوب تكفي للتدليل على ما أشرنا إليها آنفاً حيث يقول :

ودخلت سنة ست وثلاثين زستمانه (١٢٣٨م) والسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل صاحب الديار المصرية ، وهو مقيم بها والملك الناصر داود بن الملك المعظم بالكرك وقد قل جيشه وضعت قوته ، والملك الجواد بن مودود بن الملك العادل ملك دمشق وعنده الملك المجاهد صاحب حمص والملك المظفر صاحب حماة محصور بحماة ، وعسكر حلب مع الملك الكامل بسنجار وقد قوى بكسره بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وانضمام الخوارزمية ومقدمهم بركة خان إليه ، وكان قد زوج الملك الصالح أخته لأمه من بركة خان ، وأبوها الفارس قليب مملوك السلطان الملك الكامل وقد سلم إليها حران والرها ، وبید الملك الصالح أمن وبلادها وما كان بيد الملك الكامل والملك الأشرف من بلاد الشرق .

وفى خضم تلك الفوضى السياسية تحالف الملك الصالح نجم الدين أيوب مع الملك الناصر داود ، واتفقا على خلع الملك العادل الثانی على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر .

" وجلس الملك الصالح نجم الدين أيوب على سرير الملك واعتقل أخاه العادل ببعض دوره واستخلف الأمراء . وزينت القاهرة وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة " .

ومع ولاية الصالح أيوب حكم مصر كانت الظروف الاقتصادية والسياسية فى غاية السوء وهو ما تشير إليه كتابات المؤرخين من أمثال ابن واصل، والمقرئزى وابن تغرى بردى وغيرهم معبرين عن حالة الإخفاق الذريع فى السنوات الأخيرة من حكم خلفاء صلاح الدين .

" وفى ذى الحجة (٦٣٧هـ) أحضر الملك الصالح إليه الملك العادل وسأله عن أشياء ثم كشف بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم وقيل له عما أتلغه أخوه " السفیه " (الملك العادل الثانی) وبرغم أن الصالح

أيوب قد تلقى تأييداً من الخليفة العباسي أصفى على حكمه نوعاً من الشرعية فإن قوة معارضيه في الداخل (الأمراء وقبائل العربان) والخارج (أمراء الشام) وقفت حائلاً دون تمكينه من دعم قوته العسكرية في مواجهة الصليبيين ومما زاد الطين بلة أن الملك الصالح إسماعيل - عم الصالح أيوب - مارس نفس السياسة التأميرية التخاضعية لخلفاء صلاح الدين طمعاً في حكم مصر حتى أنه "أنن للفرنج في دخول دمشق" واتفق معهم على معاضدته ومساعدته ومحاربة صاحب مصر وأعطاهم قلعة صفد وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عامل (بالشقيف) وسائر بلاد الساحل ، وعزم على قصد مصر .

ومن ناحية أخرى كان الصليبيون يتحينون الفرصة تلو الفرصة لإرسال حملات صليبية إلى "مصر" معتمدين في ذلك على انقضاء مدة الهدنة بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني (١٢٢٩ - ١٢٣٩ م) وفي نفس الوقت حالة التشرذم السياسي في الساحة العربية .

ومن المدهش - حقاً - أن "القدس" التي تم استردادها في ٩ جمادى الأولى سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م بوساطة الجنود الخوارزمية تحولت - على العادة - إلى ورقة سياسية على مائدة المفاوضات بين المسلمين والصليبيين بحيث يتم التنازل عنها مرة أخرى للصليبيين مقابل أن تظل مصر بأيدي ملوك بني أيوب الذين تنافسوا جميعاً في الفوز بها حتى إن المؤرخ "ابن واصل" الذي عاصر تحرير القدس على يد الناصر داود لم يشغله هذا الحدث العظيم بقدر ما شغله الحديث عن حكمة الكامل ورجاحة عقله وسعة ثقافته هو وشريكه في اتفاقية يافا (فردريك الثاني) . الأمر الذي يجعلنا نتعامل بنوع من الحيطة والحذر مع روايته عن تلك الحقبة التي عاصرها .

وقد تحالف بعض حكام الشام ومن بينهم الصالح إسماعيل في دمشق والناصر داود في الكرك ، والمنصور إبراهيم في حمص ضد الصالح نجم الدين أيوب مقدمين تنازلات شائنة شملت منطقة الأقصى وقبة الصخرة . وذلك في خضم الحملات الصليبية التي تتابعت على الشرق في الفترة من سنة ١٢٣٩م إلى سنة ١٢٤٩م (حملة تيبالد الشمباني - حملة ريتشارد كورنوال - حملة لويس التاسع) - وهي الحملات التي باءت في مجموعها بالفشل بفضل بسالة قسم كبير من الجنود الشوام والمصريين الذين رفضوا التحالفات المهينة لملوكهم وزعمائهم وكذلك المقاومة الشعبية المبهرة للمصريين ضد الحملة الصليبية الأخيرة على مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

وهكذا صارت مصر فريسة سهلة للحملات الصليبية المتتالية في زمن خلفاء صلاح الدين والتي كان آخرها الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع Louis IX تلك الحملة التي نجحت في احتلال دمياط مرة أخرى في صفر سنة ١٢٤٧هـ / ١٢٤٩م .

وفي هذه الأثناء توفي سلطان مصر الملك الصالح أيوب في منتصف شعبان (٦٤٧هـ) دون أن تجد مصر جيشاً نظامياً قوياً يدافع عنها إذ تحولت المعارك بين المصريين والصليبيين في دمياط والمنصورة إلى نوع من حرب العصابات حيث كثرت أعداد الأسرى من القوات المعادية بفضل الأعمال الفدائية للمجاهدين المصريين والعرب من الشوام والمغاربة الذين توحدوا على قلب رجل واحد في أروع صورة من صور المقاومة الباسلة أشار إليها أحد المؤرخين الأجانب المعاصرين (جوانفيل) بقوله :

" كان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ليجهزوا على رجالنا وهم يغطون في سباتهم " .

وبوفاة الملك الصالح أيوب خلت الساحة العربية/الإسلامية من وجود شخصية حاكمة قيادية يمكن لها إدارة عملية الصراع بين القوى الصليبية والقوى الإسلامية في أخرج الفترات التاريخية في مصر أواخر العصور الوسطى والتي كانت في حاجة إلى ظهور قوة سياسية تعيد لمصر هيبتها وريادتها في سائر بلاد العالم .
ويرشدنا "النويرى" إلى خصوصية مصر في الفكر السياسى للملك الصالح الأيوبي في سياق مقولة الصالح لابنه وهو يعظه :

" وهذا العدو المخدول (الصليبيون) أن عجزت عنه وخرجوا من دمياط وقصدوك ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة ، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل أعطهم ولا تتوقف على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قعر قصبة " .

أليست تلك الوصية التي تركها الأب لابنه تأكيداً صريحاً لخصوصية مصر في الفكر السياسى لخلفاء صلاح الدين الأيوبي ، واعترافاً واضحاً بعجز هؤلاء الخلفاء عن مواجهة التحديات العسكرية التي واجهها سلفهم الناصر صلاح الدين دون ضعف أو تخاذل أو هوادة ؟ .

ومن الخطأ أن نركن إلى ماسطرته أقلام بعض المؤرخين المعاصرين المفتونين ببعض السجاياء الشخصية لخلفاء صلاح الدين التي كتبت بقصد أن تكون تاريخاً دون النظر إلى السجاياء الأخرى التي تؤثر إيجاباً في مصائر الشعوب وتصون الحقوق الطبيعية للمسلمين وغير المسلمين في الحياة الحرة الكريمة وتحافظ على ثوابت القيم التي تتوارثها الأمم جيلاً بعد جيل .

ولعلنى أتساءل ؛ هل كان صلاح الدين الأيوبي أدنى في سجاياء الحميدة سياسياً وثقافياً وعقيدياً - من الذين جاءوا من بعده ؟ ألم يكن بحق " صلاح الدين والدنيا ، " وهل كان دونهم في دعوة السلام والتسامح التي شهد له بها الأعداء

قبل الأصدقاء ؟ بل إن صلاح الدين الأيوبي كرس سجاياه وصفاته النبيلة في تأسيس دولة إسلامية كبرى عاصمتها مصر لعبت دوراً مصيرياً في خدمة حركة الجهاد ضد الصليبيين بالرغم من أن التحديات التي واجهت صلاح الدين كانت تفوق في قوتها وشدتها تلك التي واجهت خلفاؤه من بعده .

والواقع أن أسلوب المهادنة والتخاذل في حقوق الرعية كان يمثل خطأ ثابتاً في الفكر السياسي لخلفاء صلاح الدين الأيوبي ، وكانت عروضهم على الصليبيين غاية في الكرم المسّف إذ بسطوا أيديهم كل البسط لكي يضمنوا استقرار وجودهم السياسي وبخاصة الذين يحكمون مصر من أمثال العادل ، والكامل ، والصالح أيوب الذين تنازلوا عن كثير من التراث السياسي والمجد العسكري لصلاح الدين الأيوبي . بل إن هذه السياسة التخاذلية أثرت سلباً على النهضة الفكرية والثقافية التي شهدتها مدينة القدس وبلاد الشام في أعقاب معركة حطين وتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي وهو ما شهد به عماد الدين الأصفهاني (ت: ٥٩٧هـ) لتلك المدينة الخالدة من أنها كانت منارة للثقافة وملتقى لأهل العلم والمعرفة من كل جنس ...، وتذاكر (فيها) العلماء ، وتناظر الفقهاء ، وتحدث الرواة ،....".

وبعد ، فإن الباحث في تاريخ عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي يستطيع أن يدرك حجم الفراغ السياسي والعقدي الذي تولد في الشرق العربي/الإسلامي بعد رحيل صلاح الدين في سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، وخلو الساحة من شخصية قيادية يمكنها توحيد العالم الإسلامي تحت راية الجهاد ضد الصليبيين .

ولقد عانت المنطقة العربية حالة من التشرذم السياسي والضعف العسكري والانحيار المعنوي في ظل الخلافات الشخصية بين خلفاء صلاح الدين طمعاً في الجاه والسلطان ومزيد من المكاسب الدنيوية الزائلة . بمعنى أن هؤلاء الخلفاء تخلوا - طواعية - عن دورهم التاريخي الذي رسمه لهم مؤسس دولتهم الناصر

صلاح الدين الأيوبي وتفرغوا للقتال الرخيص ضد بعضهم البعض لتحقيق أهداف سياسية خاصة كانت " مصر " في مقدمتها بحكم ريادتها التاريخية للعالم الإسلامي من ناحية ، وكثرة موارها الطبيعية والبشرية من ناحية أخرى .

ومن ثم فإن التحدي الذي جاءت الدولة الأيوبية استجابة له والمتمثل في العنوان الصليبي شبه الدائم على العالم العربي على مدى قرنين من الزمان - فرض نفسه على المفاهيم السياسية لخلفاء صلاح الدين وأقنعتهم - مرغمين - بأن سياسة المهادنة والتفريط في حقوق العرب والمسلمين هي الوسيلة المناسبة للتعايش السلمي مع الأعداء في ظل وجودهم الاستيطاني في المنطقة حتى وإن كانت تلك الوسيلة هي التفريط في الأماكن المقدسة والتنازل عن القدس "ثالث الحرمين" .

ومن الطبيعي في ضوء الفكر السياسي لهؤلاء الحكم - أن يتم التنازل عن جزء كبير من التراث التاريخي والإنجازات السياسية والعسكرية التي حققها صلاح الدين في حروبه الباسلة مع الصليبيين وإن كانت هذه التنازلات قد تفاوتت نسبها من حاكم لآخر ، فالملك الكامل كان أكثرهم كرمًا وسخاءً في هذا الشأن بعد أن أورثه أبوه العادل فكرة أن " مصر " خير وأبقى في المنظور الاقتصادي / السياسي من "القدس" وسائر بلاد الشام وأن الحرب مع الأهل والأقارب والأصدقاء خير من الحرب مع الأعداء الصليبيين ، ولم لا ؟ ألم يكن لسان حال الكامل في كل ممارساته مع ملوك الغرب الأوربي الكاثوليكي - يقول : رب أخ لم تلده أُمي ومن بينهم الإمبراطور الألماني " فريديك الثاني " !

ومن أجل الاحتفاظ بحكم مصر قَدَم الملك العادل للصليبيين عروضاً للصلح والمهادنة ومن بعده الكامل التي أسهبت المصادر المعاصرة في الحديث عن دهائه السياسي ونجاحه في إبعاد شبح الحرب عن مصر إلى أجل غير مسمى ! كما أن الملك الصالح برغم دوره الدفاعي عن مصر ضد الصليبيين - فإنه عرض

تنازلات كبيرة على الأعداء وعقد معهم معاهدات صلح من أجل نفس الغرض وهو تأمين كرسى الحكم فى مصر .

ولم يكن حكام بنى أيوب فى بلاد الشام أفضل من ذوى القربى فى مصر بل تكاملوا معهم فى تقديم التنازلات للصليبيين مقابل التحالف معهم فى غزو مصر والاستمتاع بمواردها وخبراتها الوفيرة . وإن كان ثمن ذلك القدس وسائر بلاد الساحل . وهو ما استنكره المسلمون والعرب فى أنحاء العالم الإسلامى .

وليس من الصعب على الباحث أن يدرك فى ضوء المصادر المعاصرة أن المبررات التى قدمها المؤرخون لأفعال هؤلاء الحكام غير كافية لإخفاء حقيقة أن "مصر" كانت الباعث القوى لكل الصراعات السياسية والمواجهات العسكرية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي من ناحية والتنازلات السياسية المقدمة منهم للصليبيين من ناحية أخرى برغم أن الأحداث التاريخية التى امتلأت بها بطون المصادر حول الحملات الصليبية والمراسلات الكنسية توحى فى ظاهرها بأن "القدس" هى الباعث ، وهى الهدف ، والمبتغى .

بمعنى أن الأيوبيين - خلفاء صلاح الدين - تخلوا عن دورهم التاريخى فى الجهاد ضد الصليبيين وتحرير المقدسات العربية/الإسلامية ، وتوحيد العالم الإسلامى تحت راية سياسية مشتركة ، لكى يتفرغوا للتنازع والتقاتل فيما بينهم من أجل الانفراد بحكم مصر .

بل إن آخر الحملات الصليبية التى جاءت إلى الشرق فى عصر خلفاء صلاح الدين بدعوى تحرير القدس تحت قيادة الملك الفرنسى لويس التاسع كانت لاتعلم بأن ثمة قوة عسكرية جديدة تقف على أهبة الاستعداد للقضاء على البقية الباقية من أحلام زعماء الغرب الأوروبى فى بلاد الشرق تحت قيادة مصر أم الدنيا ومهد حضارات العالم .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: المصادر العربية :

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن ، ت ٦٣٠ هـ)
- الكامل في التاريخ ج ٩ - ج ١٢ (القاهرة ، ١٩٦٦ م)
- ابن أبيك الدوادري (أبو بكر عبد الله ، ت ؟)
- كنز الدرر وجامع الغرر " الجزء السابع " المعروف بـ الدر المطلوب في أخبار بني أيوب تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٩٧٢ م)
- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين ، ت ٨٧٤ هـ)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق القسم الأدبي ، دار الكتب الأجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ (القاهرة ، د.ت)
- ابن جبير (محمد بن أحمد ، ت ٦١٤ هـ)
- كتاب الرحلة (بيروت ، ١٩٧٩ م)
- ابن شداد (القاضي بهاء الدين ، ت ٦٣٢ هـ)
- سيرة صلاح الدين المعروف بـ النواذر السلطانية والمحاسن اليوسيفية تحقيق سعد كريم الفقى (الإسكندرية ، دار ابن خلدون ، د.ت)
- ابن العديم (أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد ، ت ٦٦٠ هـ)
- زبدة حلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان " جزءان " (دمشق ، ١٩٦٨ م)
- ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي ، ت ؟)
- التاريخ المنصوري ، تحقيق أبو العبد دودو (دمشق ، ١٩٨٢ م)
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ)
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ - ج ٣ ، تحقيق جمال الدين الشبال (القاهرة ، د.ت)
ج ٤ - ج ٥ ، تحقيق حسنين محمد ربيع (القاهرة ، ٧٢ - ١٩٧٧ م)
- ابن الوردي (زين الدين عمر ، ت ٧٤٩ هـ)
- تاريخ ابن الوردي " جزءان في مجلدين " (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦ م)

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد ، ت ٦٦٥هـ)
- كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين " جزءان في مجلد " (القاهرة ، ١٢٨٧هـ) ، (بيروت ، د.ت)

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ)
- المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ (القاهرة ، ١٣٢٥هـ)

عماد الدين الأصفهاني (محمد بن صفى الدين ، ت ٥٩٧هـ)
- الفتح القسى في الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م)

القلقشندي (أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١هـ)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ، د.ت)

المقريزي (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ)
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " جزءان في مجلدين " (القاهرة ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ)
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ - ج ٢ ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة (القاهرة ، ٣٤ - ١٩٥٨م)

النويري (شهاب الدين عبد الوهاب ، ت ٧٣٣هـ)
- نهاية الأرب في فنون الأدب
الأجزاء الأخيرة التاريخية (القاهرة ، ٩١ - ١٩٩٢م)

وليم الصوري
- أعمال الفرنجة فيما وراء البحار (الحروب الصليبية) ، ترجمة حسن حبشى " ٤ أجزاء " (القاهرة ، ٩١ - ١٩٩٥م)

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ، ت ٦٢٦هـ)
- معجم البلدان ، ٨ أجزاء في ٥ مجلدات (بيروت ، دار أحياء التراث ، ١٩٩٧م)

ثانياً :المراجع العربية :

إبراهيم على طرخان (دكتور)
- صلاح الدين وتحرير القدس

(القاهرة ، ١٩٦٨م)

جوانفيل:

- القديس لويس ، حياته وحملاته الصليبية على مصر
ترجمة حسن حبشي
(القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م)

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- العدوان الصليبي على مصر - هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور
(الإسكندرية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٦٩م)

رأفت عبد الحميد محمد (دكتور) :

- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب
بحث في مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسط (آداب عين شمس) " المجلد الثانى "
(القاهرة ، ١٩٨٣م) ص ١٣٠-١٣٦ .

- قضايا من تاريخ الحرب الصليبية

(القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ١ ، ١٩٩٨م)

سعيد عبد الفتاح عاشور(دكتور):

- الإمبراطور فريريك الثانى وعلاقته بالشرق العربى
بحث فى مجلة الجمعية التاريخية العدد ١١
(القاهرة ، ١٩٦٣م)

- الناصر صلاح الدين ، سلسلة أعلام العرب (٤١) (القاهرة ، ١٩٦٥م)

- الحركة الصليبية جزءان فى مجلدين (القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ط ٥ ، ١٩٩٣م)

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

- الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي
(بيروت ، ١٩٦٢م)

عزيز سوريال عطية (دكتور):

- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فيليب سيف
(القاهرة ، دار الثقافة ، ط ١ ، ١٩٩٠م)

عليه عبد السميع الجنزورى (دكتور) :

- الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
(القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م)

فيشر (هـ.أ.ل) :

- تاريخ أوربا العصور الوسطى "القسم الأول" ترجمة: محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني
(القاهرة ، دار المعارف ، د.ت)

قاسم عبده قاسم (دكتور) :

- ماهية الحروب الصليبية
- الحروب الصليبية "نصوص ووثائق"
- من تاريخ الأيوبيين والمماليك
(القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٣ م)
(القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠٠ م)
(القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١ م)

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

- حملة لويس التاسع على مصر
(القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٦١ م)

محمود سعيد عمران (دكتور) :

- الحملة الصليبية الخامسة ، حملة حنادى برين على مصر (الإسكندرية ، ١٩٨٧ م)
- صلاح الدين من الإسكندرية إلى حطين ، بحث فى المؤتمر الدولى عن حطين فى ذكرى
مرور ٨٠٠ عام .
(بغداد ، ١٩٧٢ م)

موريس كين :

- حضارة أوربا العصور الوسطى ، ترجمة د.قاسم عبده قاسم
(القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٦ م)

نورمان كانتور:

التاريخ الوسيط جزءان فى مجلدين ، ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم
(القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٧ م)

هايد :

- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا محمد " ٣ أجزاء"
(القاهرة ٨٥ - ١٩٩٤ م)

وفاء محمد على (دكتور) :

- دراسات فى تاريخ الدولة الأيوبية
(القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت)

يوشع براور :

- عالم الصليبيين ، ترجمة وتقديم وتعقيب قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن
(القاهرة ، دار عين ، ط ١ ، ١٩٩٩ م)

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

Adrian J. Boad :

- **Jerusalem in the time of the crusades , London ,2001 .**

Edger N. Jonson :

- **The Crusades of Frederick Barbarossa and henry VI (Setton, vol II, PP.87-122), Wisconsin, 1969.**

Jone H. Hussy :

- **Pyzantium and the crusades (1081-1204) Setton, vol II, PP.123-151, Wisconsin, 1969.**

Joinvill (J.) :

- **The life of saint louis IX (Translated by M.R.B Shaw) penguin 1975 .**

Lane poole (s.) :

- **A History of the Egypt in the Mjddle Ages , London, 1925.**

Mayer (H. E.):

- **The Crusades (Translated by John Gillinghan ,Oxford Univ 1972.**

Runciman (S.):

- **History of the Crusades Cambridge Univ 1966.**

الخيانة الحاكمة زمن الغزو التتري للعراق والشام

{ قراءة في المصادر العربية }

نظرية الغزو التتري وعلاقتها بالخيانة الحاكمة:

بينما وقف جنكيز خان يرنو ببصره إلى ما وراء الهضبة التي يقطنها بنو جلده من التتر (المغول) إذ به يستحضر في خاطره كلمات تلقاها في طفولته على يد معلمه الأول تقول :

" إن بلادنا مهما اتسعت فلن تبلغ جزءاً من مائة من أرض الخطأ أما السبب الذي جعلنا قادرين على العيش إلى جوار تلك البلاد حتى الآن فهو كوننا قوم رحل نحمل متاعنا وزادنا أينما توجهنا ، وقد أكسبتنا الظروف خبرة واسعة فنحن إذ تمكنا غزونا ، وغنمنا ، ، وإذا عجزنا توارينا واختفينا ، أما إذا بدأنا نشيد البلدان ونقيم المدن تغيرت عاداتنا وطباعنا القديمة التي توارثناها على أسلافنا الأمجاد ولن تقوم لنا بعدها قائمة ، ولا تنس يا بني أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعو إلى لين الخلق وتحبذ الرقة والهدوء ، مع أنه لن يسود البشر غير المقاتل القوي " .

هكذا استحضر جنكيز خان "تيموجين" تعاليم معلمه الأول ليقوم عليها منهجه في الحياة ودستور دولته في أوقات السلم والحرب ، والذي يقوم على النشر والغدر وسفك الدماء من أجل البقاء ، وهذه التعاليم الصارمة ظلت عنواناً ثابتاً للغزوات التتريّة على مر العصور والأزمنة .

وعلى الرغم مما تحقق للفتى "تيموجين" بعد ذلك من مكانة رفيعة بين قومه الذين انتخبوه في مؤتمر عام زعيماً لهم ولقبوه بالسيد الأعظم أو " جنكيز خان " فإنه لم ينس لحظة واحدة تعاليم أستاذه الأول التي حفظها عن ظهر قلب وصارت مدداً له في كل غاراته التوسعية وبموجب هذه الزعامة الكبرى شرع في بسط نفوذه على سائر القبائل التتريّة الأخرى مثل قبائل القلموق والقرغيز ، والقفجاق وغيرها من القبائل التي شغلت في بداية الأمر مساحة جغرافية

من الأرض فى المناطق المتاخمة لشمال الصين فضلا عن مناطق سيبيريا والتركستان وبلاد القرغيز ، ثم اتسع المدلول الجغرافى لبلاد التتار ليشمل إقليم منغوليا والذي ينسب إليه " المغول " أو المنغوليون .

ولكن طموحات " جنكيز خان " لم تقف عند حدود الزعامة لعدد من القبائل البدائية فى هذه المساحة الجغرافية ، بل امتدت هذه الأطماع إلى أراضي الإمبراطوريات الكبرى فى " الصين " و " الخطا " غرباً حتى وصل بإطماعه إلى حدود الدولة الإسلامية ليقيم إمبراطورية امتدت من شبه جزيرة كوريا إلى بولندا فى أوروبا الشرقية .

ولكن سيادة هذا العالم لن تحقق بالنسبة لجنكيز خان إلا بغزو المشرق الإسلامى والسيطرة على ثرواته وموارده ليصبح جديراً بلقب " الحاكم الأعظم " أو " ملك ملوك العالم " ، ولم لا ؟ أليس تحت قيادته أفضل المقاتلين الذين تم تدريبهم على كل وسائل القتل والتخريب والتدمير فى إطار تعاليم " اليساق " التى تنص على أنه " لن يسود البشر غير المقاتل القوى " - وأنه لابد من القضاء على بقية الأجناس بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة !

وقد بدأت أولى المواجهات بين التتار تحت حكم جنكيز خان وحكام العالم الإسلامى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م عندما أغاروا على أراضي الدولة الخوارزمية تحت حكم علاء الدين محمد بن خوارزم شاه . وكان سبب ذلك هو النزاع على الحدود بين التتار والمسلمين ، والذي أوجد حالة من التوجس بين الدولتين أسفرت فى النهاية عن إغارة التتار على بلاد المسلمين والزحف صوب سمرقند كبرى مدن ما وراء النهر فى المنطقة الآسيوية المتاخمة للعراق ، وفى هذا يقول المقرئى : " وفيها (٦١٦ هـ) ابتدأ ظهور التتار واستولوا على كثير من بلاد الإسلام ، وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه

تكشن ، ثم استولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم " وفي السنة التالية " استولى التتر على سمرقند وهزموا السلطان علاء الدين وملكوا الري ، وهمزان وقزوين ، وحاربوا الكرج ، وملكوا فرغانة والترمذ وخوارزم وخراسان ومرو ونيسابور وطوس وهراة وغزنة " .

ويروى " ابن الأثير " الذي عاصر هذه الأحداث تفاصيل هذا الزحف التتري على بلاد العجم من المسلمين مبتدأ كلامه بقوله : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليها رجلا وأوخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها " ويستطرد المؤرخ قائلا :

" فإن قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغروبلاساغون ثم منها إلى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرها فيملكونها ويفعلون بأهلها ما تذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبها ثم يتجاوزنها إلى الري وهمذان وبلد الجبل ، وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم بلاد أذربيجان وأرانيه ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ... ، ولقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبطل بها أحد من الأمم " .

وإذا كان المؤرخ ابن الأثير قد اهتزت مشاعره ، وزلزلت الأرض من تحت قدميه حول مافطه هؤلاء التتار " الملاعين " فإن القارئ المنصف لأحداث تلك الفترة منذ ظهور التتار على مسرح العمليات القتالية مع المسلمين في بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وحتى كانت نهايتهم المفجعة في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م - يرى أن " الملاعين " من أرباب السلطة والثروة من حكام المسلمين الذين خاتوا الدين والوطن ، وباعوا أنفسهم وشعوبهم

مقابل " أن يثبتوا على ما هم فيه " من مظاهر الجاه والنعيم ، وهم الأجدر بأن تفرد لهم مساحات واسعة في المصادر المعاصرة ليكونوا عظة وعبرة للذين يلحقون بهم من الحكام على مر العصور بعد أن قلت حرمتهم بين شعوبهم . لماذا ؟

لأن من يقرأ في هذه المصادر - عامة - وفي تاريخ أحداث الغزو التتري لبلاد المشرق العربي / الإسلامي - خاصة - يلاحظ أن العامل الرئيس في هذا الزحف العنيف للتار هو الخيانة العظمى التي ارتكبتها عدد غير قليل من الحكام وأرباب الدولة في العراق والشام ، وما كان جنكيز خان (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة في اتجاه الأراضي العربية الإسلامية إلا بدعوة شخصية من أحد هؤلاء الخونة أيا كانت مسمياتهم الحاكمة (خليفة ، سلطان ، ملك وزير ، أمير ، والي ،... الخ) وهو العامل الذي ارتكزت عليه نظرية الغزو التتري . والظاهرة الواضحة في المصادر التاريخية العربية ، بل والأدبية أيضا هي أن التتار في جميع غزواتهم على العراق والشام كانوا يعتمدون على شرذمة من الخونة تبدأ بالحاكم وتنتهي بأحد التجار أو الغلمان الذين يمارسون هذا النوع من الخيانة بأوامر هؤلاء الحكام .

ولكن يبدو أن المصادر التاريخية المعاصرة كانت شحيحة إلى حد كبير في عرض صور هؤلاء الخونة في الوقت الذي كانت فيه هذه المصادر سخية إلى حد الإسراف في وصف الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها التتار في حق شعوب العالم الإسلامي تاركة الجانب المسكوت عنه - والأهم - في رأيي - لقدرة القارئ على التحليل والاستنباط ، وقراءة ما بين السطور ، وهذا ما نحاول البحث فيه من خلال الصفحات التالية .

جذور الخيانة :

كانت بداية مسلسل الخيانة الحاكمة في العالم العربي زمن الغزو التتري للمشرق الإسلامي في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م عندما توترت العلاقات بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه (ت ٦٢٨هـ) والخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) مما دفع الخليفة العربي إلى طلب النجدة من التتار ولم يكن يدري وهو في الأيام الأخيرة من عمره أنه يحفر قبر الخلافة العباسية بنفسه بموالاته لأعداء الإسلام والمسلمين .

يقول ابن الأثير : " في أول هذه السنة وصل جلال الدين ابن خوارزم شاه محمد بن تكشن إلى بلاد خوزستان والعراق ، وكان مجيئه من بلاد الهند لأنه كان وصل إليها لما قصد التتر غزنة . ووصل إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين فملكها وسار إلى منها إلى بلاد فارس . وسار إلى خوزستان فحاصر مدينة تتر في المحرم وبها الأمير مظفر الدين مملوك الخليفة الناصر لدين الله فحاصره جلال الدين وضيق عليه وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا إلى ياداريا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة فنهبوا هنالك . فسار إليهم شحنة البصرة وهو الأمير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة . فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكة جمال الدين قشتمر بالقرب منه . فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار إلى أن وصل إلى يعقوبا وهي قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسي والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد .

ويقول المقريزي : " وفيها (٦٢٢ هـ) عاد السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه إلى بلاده وقوى أمره على التتر واستولى على عراق العجم وسار إلى مردين وأخذها وسار إلى خوزستان وشاقق جلال الدين الخليفة الناصر لدين الله وسار حتى وصل يعقوبا وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ فاستعد الخليفة للحصار ، ... " .

وتذكر لنا المصادر أن الخليفة الناصر هذا - " كان ردئ السيرة في رعيته ظالماً ، عسوفاً ، خرب العراق في أيامه وتفرق أهله في البلاد ، فأخذ أملاكهم وأحوالهم . وكان يحب جمع المال ، ويباشر الأمور بنفسه ويركب بين الناس ويجتمع بهم مع سفكه للدماء وفعله للأشياء المضادة فيغتصب الأموال ويتصدق وشغف برمي الطير بالبندق ، ولبس سراويل الفتوة وحمل أهل الأمصار على ذلك وفي خلافته ضرب التتر بلاد الشرق ، حتى وصلوا إلى همذان وكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد " .

وكان الخليفة الناصر ومن بعده ابنه الظاهر بأمر الله (ت ٦٢٣ هـ) كانا أشبه بمن استجار من الرمضاء بالنار (التتار) ، فكان سقوط مملكة خوارزم شاه على أيدي التتار ومقتل جلال الدين خوارزم شاه في ١٥ شوال سنة ٦٢٨ هـ نذير شؤم للخلفاء العباسيين حتى أنهم استغاثوا بالحكام الأيوبيين في الشام ومصر من غارات التتار فضلاً عن غارات القبائل العربية المتاخمة لحدود الدولة العباسية . " وفيها (سنة ٦٢٨ هـ) قدم رسول الخليفة المستنصر بالله (ت ٦٤٠ هـ) بالخلع والتقليد للملك الكامل ، " .

" وفيها (سنة ٦٢٩ هـ) تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط وسائر ما كان بيد الخوارزمي (جلال الدين) فاهتم الخليفة المستنصر بالله غاية الاهتمام وسير عدة رسل يستجد الأشراف من مصر ، ... " .

ويبدو أن الظروف السياسية والعسكرية في الشام ومصر لم تكن في صالح الخلفاء العباسيين الذين صاروا كخيال الظل للخلافة الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه دولة سلاجقة الروم تعاني حالة من الوهن والخور في مواجهة الأخطار الخارجية ، بينما صار الحكام الأيوبيون كالأخوة الأعداء الذين اتفقوا على شئ واحد فيما بينهم ألا وهو الصراع على حكم مصر كل هذا والتار يطوون الأرض طيا نحو العراق حيث مقر الخلافة في بغداد .

وبعد وفاة جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م تولى التتار بشكل مؤقت عن مسلسل الغزوات في الجزء الغربي من القارة الآسيوية ، وانشغلوا بإصلاحاتهم السياسية في الداخل خاصة أن زعيمهم الراحل - جنكيز - ترك فراغاً كبيراً يصعب ملؤه إلا بما أوتى حظاً من قدراته السياسية والعسكرية والنفسية ، فضلاً عن أن الفكر العسكري التتري كان يقوم على نظام " الوثبات " السريعة والخاطفة لتحقيق أهداف محددة يعقبها فترة من الراحة والاستعداد ثم التخطيط لعملية عسكرية جديدة لا يتم تنفيذها إلا بعد جمع المعلومات الكافية عن البلاد المراد غزوها ، وبث الرعب في نفوس أهالي تلك البلاد (الحرب النفسية) كي تحقق النتائج المرجوة بأعلى معدلات النجاح .

وفي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م بدأ الزحف التتري من جديد صوب بلاد الدولة الخوارزمية الخاضعة آنذاك لحكم جلال الدين منكبر الذي عرف في كتابات المؤرخين " بقبح سيرته وسوء تدبيره " ولم يجد جلال الدين هذا وسيلة للدفاع سوى الفرار والاستغاثة بأمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسي ليكون معهم حلفاً ضد جحافل التتار التي كان هدفها في تلك المرة بلاد الشرق العربي ولكن " سبق السيف العزل " - كما يقولون - وباغت التتار جلال الدين

قبل أن يصل إلى مبتغاه في ديار بكر مما دفعه إلى الهرب إلى بلاد الأكراد - شمال العراق - حيث كانت نهايته المأساوية على يد أحد الأكراد .

وبعد مقتل جلال الدين واصل التتار زحفهم على المدن العراقية وقتلوا ما يزيد عن خمسة عشر ألف نسمة ، وبلغت ممارساتهم الوحشية بالعراق أبشع صورها حتى أن أحد المؤرخين الذين عاصروا الغزو التتري لبلاد الشرق الإسلامي يصف لنا هول ما حدث بإحدى بقاع الموصل بقوله :

" اختفيت منهم بيت فيه تبين فلم يظفروا به ، وكنت أراهم من نافذة في البيت فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول (لا بالله) فيقتلونه ز فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول (لا بالله) ! "

ويقول ابن الأثير - مؤرخ معاصر - :

" إنه بلغه عن مظاهر الرعب والذعر في روايات يكاد سامعها يكذبها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم (من التتار) كان يدخل التتري القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحد بعد واحد لا يجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتري ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري وأحضر سيفاً فقتله به " .

ولقد قام التتار بحملات استطلاعية قبل غزو العاصمة - بغداد - لمعرفة حجم القوات العربية والاستعدادات العسكرية لجيش الخلافة العباسية ، وشملت هذه الحملات بعض المدن شمال العراق مثل " أربل " التي تعد البوابة الشمالية في الطريق إلى بغداد وكذلك " سامراء " عاصمة العراق زمن المعتصم وكانت أحداث تلك الحملات في الفترة من سنة ٦٣٢ - ٦٣٥ هـ / ١٢٣٥ - ١٢٣٨ م

حيث قتل فيها التتار أعدادا غفيرة من السكان ودمروا الكثير من القلاع والحصون دون الدخول في معاك تصادمية مع القوات المسلحة العراقية .

وهنا لابد أن نشير إلى حقيقة بالغة الأهمية ، وهي أن تلك الحملات العسكرية التتارية كانت تتصاعد في شدتها وبشاعتها على ضوء المعلومات الإستخبارية الواردة إلى " التتر " عن أحوال حكام الشرق العربي / الإسلامي ، وما هم فيه من ضعف واستخداء ، واستعداد للتفريط في حرمت البلاد ، وخيانة الدين والوطن .

وفي الفترة من سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م إلى سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م وهي السنة التي انتخب فيها منكوخان ليكون الخان الأعظم بعد سلفه جغتاي جرت أحداث في المناطق المتاخمة للعراق .

فقد تعرضت أرض الجزيرة وديار بكر وميافارقين وغيرها من المناطق في شمال العراق إلى سلسلة من الغارات بغرض دراسة أحوال العراق بوجه عام ومعرفة نقاط القوة والضعف في بناء الدولة العربية الإسلامية ، وبالفعل كشفت هذه الغارات عن حالة الوهن في دولة الخلافة على مختلف الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية خاصة بعد سقوط الدولة الخوارزمية وانهيار حاجز الدفاع الأمامي للشرق العربي وتوقف حركة التجارة ، وانقطاع طرق المواصلات بسبب غارات التتار شبه المستمرة على القوافل التجارية .

وفي سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م أرسل منكوخان حملة عسكرية بقيادة أخيه هولكو الذي وصل إلى ديار بكر وميافارقين حيث ارتكب - هو وقواته - أبشع الجرائم ضد سكان العراق الآمنين راح ضحيتها عشرات الآلاف ما بين قتل وجريح وأسير ومشرد الأمر الذي جعل المؤرخين المعاصرين يصورون لنا التتار في صورة العدو الذي لا يقهر متناسين بذلك المعادلة الصحيحة لقهر أي عدد مهما بلغت قوته وشراسته ، تلك المعادلة التي تقوم على ركنين رئيسيين هما : وحدة القوى

السياسية العربية " واعتصموا " ، والإعداد الجيد لكل وسائل القوة والردع " وأعدوا " ومن ثم فإن غياب طرفي المعادلة يجعل كتابات المعاصرين في المصادر العربية أشبه بصفحات الوفيات والحوادث التي تثير الهلع والفرع في نفوس الناس مثلما ورد في أحداث هذه السنة (٦٥٠ هـ) وما بعدها :

" وفيها وردت الأخبار بأن منكوخان ملك التتر سير أخاه هولأكو لأخذ العراق فسار وأباد أهل بلاد الاسماعيلية قتلاً ونهباً وأسراً وسلباً ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميفارقين وجاءوا إلى رأس عين وسروج وقتلوا ما ينيف على آلاف وأسروا مثل ذلك وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغداد فأخذوا منها أموالاً عظيمة من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر وستمائة ألف دينار وقتلوا الشيوخ والعجائز وسرقوا النساء والصبيان معهم ، فقطع أهل الشرق الفرات وفروا خائفين " .

ولكن الأدهى من كل هذا وأوردته لنا المصادر العربية بشكل مختصر عن تلك الجرائم العظمى التي ارتكبتها أهل الدولة من الوزراء والأعيان ضد الخليفة العباسي اللاهي " الذي لا يعبأ بشئ " والتي تمثلت في خيانة الدين والوطن عندما باعوا أنفسهم إلى جواسيس التتار مقابل أن يكون لهم نصيب معلوم في السلطة والثروة بعد دخول التتار بغداد وسقوط الخلافة الإسلامية بها .

الخيانة الحاكمة العربية في العراق :

في سنة ٦٥٤ هـ دخل هولاكو بقواته إلى أرض فارس وبها قوات طائفة الإسماعيلية حيث قاتلهم قتالاً عنيفاً تمكن بعده من القضاء عليهم والاستيلاء على قلعتهم الحصينة ، ليتجه بعد ذلك صوب العراق تمهيداً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد .

" وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من الأمراء بعدة مواعيد ،... " .

وهكذا تمكن هولاكو - قائد التتار - من تجنيد عدد من العملاء العرب في بلاط الخليفة العباسي المستعصم بالله عبد الله ليجعل منهم طابوراً خامساً على عادة التتار في اصطناع العملاء قبيل الهجوم المباشر على أي قطر من الأقطار ، ويبدو أن الوزير علاء الدين بن العلقمي كان مهيناً ومعداً إعداداً جيداً لتنفيذ مهام الخيانة بحيث صار يصانع التتار في سرية تامة ويرسل إليهم كافة المعلومات والأخبار التي مكنتهم من غزو بغداد وإسقاط الخلافة وقتل الخليفة العباسي .

ومن ناحية أخرى فإن الوزير الخائن " ابن العلقمي " لم يكتف فقط بمراسلة التتار وإمدادهم بالمعلومات والأخبار بل مارس نوعاً من الحرب النفسية ضد الخليفة العباسي وأهل العراق عامة من خلال نشر الشائعات حول قوة التتار وأسلحتهم وأساليب القتال التي يتفوقون بها على القوات العربية فضلاً عن مطالبته الدائمة للخليفة بتخفيض أعداد الجنود في جيش الخلافة والحد من الإنفاق العسكري ومهادنة التتار إلى غير ذلك من أشكال ممارسة الخيانة " والخليفة في لهواه لا يعاب بشئ " .

وتروى لنا المصادر المعاصرة أن " هولاكو " دخل إلى بغداد قبل الغزو في زى تاجر أعمى واجتمع بعدد من الوزراء وأكابر رجال الدولة ومن بينهم " مؤيد الدين " ، و"ابن الديوس " وغيرهما من النين خاتوا الله ورسوله ولم يغادر بغداد إلا بعدما أتقن عمله معهم " .

وفي سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ثارت فتنة كبرى بين أهل السنة والشيعة (الرافضة) بإيعاز من الوزير ابن العلقمي فأمر رئيس الشرطة بالهجوم على أهل الكرخ في بغداد ومعظمهم من الرافضة وقتلوا عدداً كبيراً منهم مما أثار ضيق الوزير ابن العلقمي - وكان شيعياً - فأرسل إلى التتار يحثهم على سرعة غزو بغداد بعد أن صارت صيداً سهلاً .

وفي ذي القعدة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م تحرك هولاكو وقواته من مقره في همدان - بعد قضائه على الطائفة الإسماعيلية - وزحف مباشرة صوب بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة العباسي وفي هذا يقول المقرئ :

" وفيها قوى هولاكو ابن تولى ابن جنكيز خان ، وقصد بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة فكثر الإرجاف في بغداد ، وخرج الناس منها إلى الأقطار ، ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة وملك ظاهر بغداد وقتل من الناس عالماً كبيراً " .

وفي أول صفر ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أصدر هولاكو أوامره بالهجوم الشامل على أنحاء بغداد ليعيثوا فيها فساداً ، وفي اليوم الرابع من هذا الشهر استسلم الخليفة العباسي المستعصم وسلم عاصمة الخلافة للتتار دون قيد أو شرط ، وبعدها بعشرة أيام قتل الخليفة ، وأعمل التتار سيوفهم في أبدان المسلمين .

ولندع المقرئ يصف لنا بقلمه هذا الحدث :

" وفيها (سنة ٦٥٦هـ) ملك هولاكو بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله عبد الله في سادس صفر فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام

وانقرضت بمهلكه دولة بمنى العباس وصار الناس بدون خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة ،...، وقتل الناس ببغداد وتمزقوا في الأقطار وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات ، واستمروا على ذلك أربعين يوماً وأمر هولاء بعد القتلى فبلغت نحو الألفي ألف قتيل ، وتلاشت الأحوال بها ، وملك التتر أربل ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعتهم " وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها الخلافة أسيرة لغير المسلمين .

وبعد أن تمت فصول مؤامرة غزو بغداد بقتل الخليفة وولده وسط ذهول ملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إذ كانت تلك المرة الأولى التي تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة في أيدي هذه الجحافل البشرية الوثنية وبعد أن تغلب منطق الخيانة السائد بين الأنظمة السياسية الحاكمة في العراق والشام على كل المشاعر الدينية الراسخة في نفوس المسلمين تحولت أحداث الخيانة إلى فصل روائي في أشهر كتب الأدب الشعبي إطلاقاً وهو " سيرة الظاهر بيبرس " التي تشير صراحة إلى خيانة الوزير ابن العلقمي للخليفة العباسي ودوره في الغزو التتري للعراق ونهايته المأساوية جزاء هذه الخيانة .

يقول الراوي :

" كان من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، وبعد أن توفي إلى رحمة الله المعتصم بالله وتولى الخلافة بعد الواثق بالله ولده ، وتولى المقتدي بالله وهو شعبان ،...، وكان له وزير يقال له العلقمي فسار الملعون هلاون في ستين ألف من الفرسان ، وكلهم يعبدون النيران دون الملك الديان راكبين خيول مثل الغيلان وساروا يقطعون البراري والوهاد طالبين أرض بغداد " .

ولا عبرة عند الباحث في الرواية الأدبية - بصحة الأحداث التاريخية - وإنما العبرة بالدلالات السياسية والعسكرية والعقيدية التي تعبر عن واقع التجربة

الحاكمية وكذلك الرواية الشعبية الوجدانية للشخصيات الحاكمية والأحداث التاريخية .

فالرواية الشعبية للخيانة الحاكمية لا تتجزأ من عصر إلى عصر بل هي رؤية ثابتة لأنها جريمة كبرى تؤثر سلباً في حياة شعب بأكمله ، ومن ثم فإن الشعب العربي لا يستطيع أن يتسامح أو يغفر لمن ارتكبوا مثل هذه الجريمة ، وهنا نقرأ في السيرة الشعبية موقف الشعب من هذه الخيانة إذ يقول الراوى في اللقاء الذى تم بين " هلاون " أو هولاكو وابن العلقمى الوزير " الخائن " :
" يا ويلك إذا كنت فعلت فى من هم فى دينك لأجل حمامة ، فتهلكنا نحن الآخرين من أجل ذبابة وأنت إن لم يكن فيك خير فى دينك وأهل ملتك ، فكيف يكون لك خير فينا " .

ومن الطبيعى أن تحاكم الشعوب الخونة من الحكام وجدانياً ولكنها تفوض أعدائها فى تحقيق ذلك فى الواقع التاريخى للأحداث مثلما حدث للوزير العباسى ابن العلقمى فى الرواية التى سردها القاص الشعبى عندما حاكم هولاكو عميله ووبخه على فطته الشائنة وهى خيانة دينه ووطنه ، وأمر بقتله فى مدخل عاصمة الخلافة على مرأى ومسمع من عيون الناس .

" ...، ثم إن هلاون (هولاكو) صاح على رجاله وقال لهم خنوه وعلى باب المدينة (بغداد) اصلبوه .

والمهم هنا أن الخيال الشعبى فى هذه السيرة توافق مع الرواية التاريخية فى التمهيد بحادثة الخيانة إلى انتقال الأحداث إلى المسرح الرئيسى فى الشام ومصر حيث كانت نهاية الغزو التتارى فى عين جالوت سنة ٦٥٦هـ / ١٢٦٠م على أيدي فرسان المماليك .

هكذا توافقت الرواية الأدبية الشعبية مع الرواية التاريخية الرسمية في رسم صورة الخيانة لأحد كبار رجال الدولة وهو الوزير ابن العلقمى الذى نجح باقتدار فى توظيف كل مظاهر الضعف السياسى والعسكرى للدولة العباسية لمصلحة أولئك الغزاة القادمين من سهول الأستبس فى الشرق الآسيوى لينشروا كل مظاهر الفناء والدمار فى أنحاء العالم العربى فى زمن خان التتار الأعظم " منكوى خان " الذى أرسل حملتين فى منتصف القرن السابع الهجرى /الثالث عشر الميلادى إحداهما إلى الصين والأخرى إلى العراق تحت قيادة هولأكو (هلاون) حيث تمكن فى إسقاط الخلافة العباسية فى سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م .

لقد كانت الصدمة الشديدة فى نفوس المسلمين إذ وجدوا أنفسهم لأول مرة بدون خليفة له رسالة سامية فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، ووجدوا العاصمة - بغداد - التى كانت بالأمس القريب نموذجاً حضارياً فريداً قد تحولت إلى أطلال تنوح ضحاياها من القتلى والجرحى والمكلومين ، وتشهد على فساد وبشاعة جحافل التتار الذين دهسوا بسنابك خيولهم كل مظاهر الحضارة فى بغداد حتى أنهم دمروا خزائن الكتب القيمة وأضرموها النار فى المنشآت والمباني الجميلة التى تحكى ذكريات الزمن الذى كان حتى خيل للناس " أن الساعة آتية عن قريب " .

"...، وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات " ..واستولى العدو على ذخائر الخلافة وخزائنها وأموالها وجواهرها " .

وتبدو الحقيقة المرة فى مسلسل الخيانة واضحة فى أعقاب سقوط بغداد وما صاحبه من أحداث دامية خلفت وراءها دعاية سوداء عن الجيش التترى الأسطورى الذى يطوى البلاد طياً ليفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، إذ تحولت ممارسة الخيانة عند الذين يحكمون البلاد العربية من طورها " السرى " على طورها " العلنى " بعد أن سقطت الأقنعة الحاكمة الزائفة .

الخيانة الحاكمة العربية في الشام :

ويعد الملك الناصر يوسف حاكم دمشق نموذجاً للخيانة المعلنّة زمن الغزو المغولي للعراق والشام إذ سارع إبان الزحف التتري على الشام إلى إرسال سفارة برناسة ابنه (العزيز) إلى هولاكو ليقدّم له فروض الطاعة والولاء ومؤكدًا ذلك بما حمّله من تحف وهدايا قيمة كي يعطيه الخان الأعظم الأمان لأبيه . بل إن الناصر يوسف لم يشجع بهذا القدر من مطالب الخيانة في ظل الظروف المأساوية التي يمر بها الشرق العربي فزاد عليه وطلب على لسان ابنه أن يعاونه هولاكو في القضاء على المماليك في مصر .

ولنقرأ ما كتبه المقريزي في هذه الواقعة الشائنة :

" في (سنة ٦٥٦ هـ) أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو قدم إليه ما معه وسأل على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك " . ولكن رد هولاكو جاء مخيباً لآمال الابن (العزيز) وأبيه (الناصر) إذ لم يعد قائد التتار في حاجة إلى مساعدة تلك الأنظمة العميلة بعد أن كشفت عن ضعفها وخضوعها ، وعدم قدرتها على الحد الأدنى من المقاومة للزحف التتري وبالتالي فإنه لم يعد يكفيه ما تقدمه له تلك الأنظمة من الأموال والهدايا بعد أن صارت الأراضي العربية بكل ما فيها من موارد وخيرات تحت سيطرته .

وفي هذا يكتب المقريزي نص كتاب هولاكو إلى الناصر يوسف :

" الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنياتها وأسرنّا سكاتها واستحضرنا خليفها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيصة ، فجمع المال ولم يعباً للرجال " .

بل إن هولاكو طلب من الناصر يوسف الخضوع والإذعان دون قيد أو شرط وإلا سيكون جزاؤه وخيماً حتى وإن اتجه إلى مصر (كروان سراى) بأمواله وحرимه مثلما فعل تجار الشام وغيرهم نجاة بأنفسهم من بطش التتار وأطماعهم الخبيثة .

وإذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجالك وأموالك وفرساتك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين تأمين شره وتتل خيره كما قال الله فى كتابه العزيز " أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى " ولا تعرف رسلنا عندك كما عرفت رسلنا من قبل، فأمسك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحریمهم إلى كروان سراى فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها " .

أين النجاة ولا مناص لهارب ولى البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت فى قبضتى الأمراء والوزراء

ومن يقرأ سطور النصوص التثرية والشعرية الواردة فى الرسائل التثرية إلى حكام العرب يلاحظ أن ثمة طابوراً خامساً من الأدباء والشعراء العرب الذين جندهم التتار لإشاعة الهلع والرعب فى نفوس هؤلاء الحكام وإضعاف الروح المعنوية فى صفوف الجيوش والشعوب العربية مما يسهل المهام القتالية للقوات التثرية ، ويحقق لها أهدافها من الغزو بأقل الإمكانيات والخسائر وهذا ما حدث بالفعل فى أعقاب وصول رسائل هولاكو المهينة إلى الناصر يوسف .

يقول المقرئ :

" فانزعج الملك الناصر وسير حریمه إلى الكرك ، وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات وسار كثير منهم إلى مصر " .

دور مصر فى مقاومة تداعيات الخيانة :

كانت أول خيانة حاكمة تصدت لها مصر فى بلاد الشام هى أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمش أرسل إلى هولاءكو - بعد سقوط بغداد - يطلب منه تفويضاً بالأمان وكان السبب فى إقدام الناصر على هذه الخطوة الانهزامية هو خوفه على ملكه ورهبته من مواجهة جحافل التتار الذين سبقت سمعتهم سنابك خيولهم إلى أراضى الشام ، ورغم أن هذا الملك الرعيد كان يحمل فى خزانته الخاصة وثيقة أمان فاتنه لم يكن يثق فى التزام التتار بالعهود والمواثيق لأنهم جبلوا على الخديعة والغدر ونقض العهود .

" وفيها (سنة ٦٤٨ هـ) وصل الملك الناصر من قبل القائد ملك التتار طمغا

صورة أمان فصار يحملها فى حياصته " .

وبعدها بعشر سنوات أرسل هولاءكو إلى الملك الناصر رسالة يدعو فيه إلى المسارعة فى الدخول فى طاعته ضد المسلمين لكى " يأمن شره وينل خيره " . وقد أثارت هذه الرسالة الهلع فى نفس الملك الناصر فتحول إلى مصر - التى كان يسعى إلى الاستيلاء عليها بمعاونة التتار - يستنجد بعسكرها ويلوذ بحماها . فاتزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك (المغيث عمر) وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً وسار كثير منهم إلى جهة مصر . وكان الوقت شتاءً فمات خلانق بالطريق ونهب أكثرهم وبعث الناصر عندما بلغه توجه هولاءكو نحو الشام بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر يستنجد بعسكرها " .

وكان بمصر آنذاك الأمير قطز الذى سعى إلى تدبير أمور الحكم ، فعزل الملك المنصور وتولى السلطنة بمصر وكتب إلى الملك الناصر بدمشق كتاباً يترقق فيه

ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر ومتى حل بها أقعده على الكرسي !

وربما حاول الملك الناصر يوسف أن يحافظ على ماء وجهه - بعد تلقيه رد هولاكو - فبعث برسالة حادة إلى القائد التتري ، وفي نفس الوقت أرسل إلى قطز في مصر المحروسة يطلب منه العون، وكان ذلك في شهر صفر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م بعد أن استولى هولاكو على حلب ومنها اتجه إلى دمشق مخلفا وراءه آلاف القتلى والجرحى وما يزيد على مائة ألف أسير من الصبيان والنساء الشوام .

ومن المؤكد أن الناصر يوسف قد أصيب بحالة من الاضطراب النفسي ولم يعد يميز بين انتماءاته السياسية فسعى إلى لقاء هولاكو ثم طلب العون من الملك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ومن قبل استغاث بالملك المظفر قطز الذي " صادر كل ما وصل إليه من غلمان الملك الناصر وكتابه وأخذ أموالهم " فضلاً عن الجواهر والأموال الكثيرة لزوجة الناصر ونساء " الأمراء القيمرية " لكي يستعين بها في تجهيز الجيش المصري لملاقاة الزحف التتري القادم من الشام . ويبدو أن هذه الحالة من الاضطراب النفسي قد انتقلت عدواها من الملك الناصر يوسف إلى غيره من حكام الشام وانعكست هذه الحالة على أهالي تلك البلاد المحكومة لهؤلاء الخونة حتى وقعت فيهم " الجفلات " وكان القيامات قامت بعد أن ظهر الفساد في البر والبحر بأيدي هؤلاء الحكام .

" ...، ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو وسار الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده ، وجفل أهل حمص وحماة " .

ولأن الجزاء من صنف العمل فإن أحد غلمان الناصر يوسف واسمه حسين الكردي سعى للقبض عليه وعلى ولده " العزيز " وعلى أخيه " غازي " وغيرهم " وبعث بهم إلى هولاءكو " ليلقوا جزاء خيانتهم في حق الله والوطن .

وفي غضون تلك الأحداث كان هولاءكو يزحف بقواته إلى دمشق التي حكمها الناصر يوسف عشر سنوات ثم رحل عنها بعد القبض عليه تاركاً وراء ظهره مجموعة من النظراء الخونة وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي الذي وصفه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بالعمالة للتتار هو ومن معه من أقرانه الذين مهدوا الطريق أمام هولاءكو وسلموه دمشق على طبق من ذهب ، بعد أن استسلم الناصر يوسف للخوف والاستخذاء .

" وعظم خوف الأمراء من هولاءكو فأخذ الأمير زين الدين الحافظي يعظم شأن هولاءكو ويشير بأن لا يقاتل وأن يدارى بالدخول في طاعته فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وضربه وسبه وقال : " أنتم سبب هلاك المسلمين " . وبينما كانت أحداث الخيانة في بلاد الشام تفوح برائحة كريهة أركمت أنوف المعاصرين جاءت الأخبار بموت " منكوخان " خان التتار الأعظم ، وكان لابد من عودة هولاءكو إلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد ، تاركاً وراءه لقيادة الجيش القائد التتري كتبغا .

" وفيها (سنة ٦٥٨ هـ) رحل هولاءكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق (بلاد فارس) وجعل كتبغا بوين نائباً عنه بحلب ، وبيدرا نائباً بدمشق ، وأخذ معه من البحرية سبعة منهم سنقر الأشقر وسكز ویرامق وبكمش المسعودي " .

هكذا تمكن التتار من غزو العراق والشام دون أن يجدوا مقاومة تذكر من حكام البلاد التي دخلوها ، بل على العكس فإنهم وجدوا كافة مظاهر الاستسلام والخضوع والمهادنة من أمثال الناصر والذين لحقوا به من الخلفاء حتى الخليفة

المستعصم والوزير ابن العلقمي والملك الناصريوسف والأمير زين الدين الحافظي والملك الأشرف موسى ناهيك عن أهل الحكم من القضاة من أمثال محي الدين ابن الزكي وكمال الدين عمر التفليسي وغير هؤلاء من الخونة الذين اعتمد عليهم التتار في اكتساح الأراضي العربية وحيث سارت بلدان العراق والشام مرتعاً خصباً لهؤلاء العملاء لإفراز سموم الفرقة والتشردم بين الشعوب العربية كي لا تقوى على مواجهة التحديات والدفاع عن نفسها ضد الأخطار المحدقة بها من كل جانب .

بل إن السلطان سيف الدين قطز (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) دعا حكام الشام إلى نبذ الفرقة والخلاف وعدم التعامل مع التتار مهما كانت الظروف والملابسات لأن في ذلك إضعاف لوحدة الصف العربي ، وأن العراق إذ كانت سقطت بسبب ضعف المسلمين وخيانة بعض الحكام فإن الأمر يستلزم وحدة الشام ومصر لرد العدوان وتحرير العراق مرة أخرى من نير التتار .

وبرغم الصدق الواضح في دعوة قطز لحكام الشام ، فإن بعض هؤلاء الحكام لم يستجيبوا لهذه الدعوة وأصرروا على ما هم فيه من خيانة ، وكان آخر هؤلاء الملك الأشرف صاحب حمص الذي كافأه التتار بعد عودته من عند هولاكو بتعيينه نائباً للسلطنة بدمشق وسائر الشام .

وفي هذا يقول أبو الفدا : " ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين ، وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز بن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا ،...، وكان أيضاً في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص " .

لقد كشف قطز منذ اللحظة الأولى في قيادته للجيش العربي الإسلامي عن رؤيته السياسية والعسكرية الثاقبة إذ سعى إلى لم شمل حكام العرب

فى بلاد الشام وتوحيد الجهود الحربية فى جبهتى الشمال والجنوب من خلال مراسلاته التى أسفرت عن تجمع الفرق العسكرية الشامىة وتقدمها نحو القاهرة لتكون تحت القيادة المصرية على أهبة الاستعداد لمهاجمة جيش التتار الذى صار قاب قوسين أو أدنى من الحدود المصرية .

وفى هذه الأثناء كان الأمير ركن الدين بيبرس فى الشام يتابع عن كثب أساليب التتار فى القتال وأساليب الخونة والعملاء فى مدهم بالأخبار والمعلومات من أمثال الملك الصالح إسماعيل الذى كان على اتصال سرى شبه مستمر مع التتار والأمير زين الدين الحافظى الذى كان أخطر عميل أحادى للتتار فى الشام ليس فقط لأنه كام مصدراً رئيسياً للمعلومات بل كان أيضاً مصدراً رئيسياً لنشر الدعاية السوداء فى صفوف القوات العسكرية الشامىة والتى تدعوهم إلى رفع الرايات البيضاء للأعداء وتلبية كافة مطالبهم دون قيد أو شرط .

ويعصور لنا أحد المؤرخين هذا المشهد الفريد فى الخيانة بقوله :

" وسار هولاكوا إلى دمشق بعد أن أخذ حلب بستة عشر يوماً فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر المقربانى المعروف بالدين الحافظى وأغلق أبواب دمشق وجمع ما بقى بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكوا فتسلمها فخر الدين المردغانى " .

" فلما كانت ليلة الاثنين تاسع عشر صفر (٦٥٨هـ) وصل رسل هولاكوا صحبة القاضى محى الدين بن الزكى وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكوا بحلب فخلع عليه وولاه قضاء الشام وسيره إلى دمشق ومعه السوالى . فسكن الناس وجمعوا من الغد بالجامع فلبس ابن الزكى خلعة هولاكوا وجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكوا " .

وثمة نص ورد في العديد من المصادر العربية وهو رسالة موجهة من هولاءكو (هلاوون) إلى الملك المظفر قطز " صاحب مصر وأعمالها وسائر أمراءها وجندها وكتابها وعمالها وباديها وحاضرها وأكابر وأصاغرها،..." (رواية ابن أيبك) .

أو هو رسالة من " ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم (إلى) الملك المظفر (قطز) الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا (سيوف التتار) إلى هذا الإقليم (مصر) ... " (رواية المقرئى) .

وهذا النص يوحى فى مضمونه بحالة الغرور والتهيه والغطرسه التى بلغت أوجها فى نفوس التتار بعد سلسلة الانتصارات المذهلة والمفرعة لكل المعاصرين بحيث جاءت كلمات الرسالة بكل مافيهها من غلظة وفجاجة تعبيراً حقيقياً عما أحدثه هؤلاء التتار من أعمال تخريب وتدمير وقتل وتشريد فى المدن العربية بالعراق والشام بمساعدة الخونة والعلماء الذين أمدوهم بأدق المعلومات عن القوات العربية الإسلامية وأسلحتها وقدراتها القتالية فضلاً عن المعلومات السياسية المتصلة بشئون الحكم والإدارة ناهيك عن دور هؤلاء الخونة فى إضعاف الروح المعنوية وإشاعة الرعب فى نفوس العسكريين المدنيين قبل نشوب المعارك حتى صار مجرد الاستماع لأخبار قدومهم على أى بلد عربى نذير شؤم لكل الشعوب العربية إذ أنهم (التتار) قوم لا يهزمون وجيش لا يقهر .

ولكن مصر صاحبة الرسالة الأبدية فى الدفاع عن الأمة العربية والإسلامية ضربت المثل فى فترة وجيزة من عمر الزمن لم تزد عن عشر سنوات (١٢٥٠-١٢٦٠م) على أن مصير العرب جميعاً مرتبط بمصير مصر وأن الجيش المصرى الذى أحبط كل مخططات ومحاولات الصليبيين فى سيادة الشرق العربى وكانت آخر هذه المحاولات فى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م تحت قيادة الملك الصليبي

لويس التاسع الذى تصور بأنه بتحالفه مع جحافل التتار الغازية للعراق والشام يستطيع أن يغزو مصر ويعيد أمجاد الصليبيين فى حكم الشرق العربى الإسلامى .

وجاء رد قطز على رسالة هولاء مخيباً لآمال الجيش التتارى وآمال عملاءه من الملوك والأمراء والأعيان فى بلاد الشام الذين تصوروا وهم فى سكرة التيه أن النصر الحاسم آت وأن ثمار الخيانة قد حان قطافها وأن خريطة العالم العربى سوف تتعدل وفقاً لأطماعهم الدنيوية والتي من أجلها باعوا الدين والوطن وهانت عليهم شعوبهم بعد أن هانت عليهم أنفسهم وصدق فيهم قول الشاعر :

ومن يهن يسهل الهوان عليه وما لجرح بميت إيلام

لقد كان رد قطز رسالة لكل الخونة والعملاء فى أنحاء العالم العربى بأن مصر فيها خير أجناد الأرض ، وأنها فى رباط إلى يوم الدين وأن صحوة الجهاد فيها لا تؤثر فيها وسائل التهديد والوعيد من جانب الأعداء ولا تفت فى عضدها أساليب التجسس والخيانة من جانب العملاء .

" وفيه أحضر قطز رسل التتار وكانوا أربعة : فوسط واحد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ووسط آخر بظاهر باب زويلة ووسط الثالث ظاهر باب النصر ووسط الرابع بالريدانية وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل وجعله من جملة مماليكه . ونودى فى القاهرة ومصر وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ .

وصارت مصر مركزاً لتجمع كافة المقاتلين من مصر والشام تحت قيادة قطز وكان الجميع فى انتظار تحديد ساعة الصفر وتحولت مصر إلى ميدان جهاد تتنافس فيه كل القوى الشعبية فى العمل والإنتاج والتدريب وبذل المال حتى صارت

الروح المعنوية للجنود في عنان السماء ، بحيث لم يوجد على أرضها موطأ قدم لخائن أو عميل .

وقراءة متأنية لنصوص الرسائل الواردة من التتار وممهورة بتوقيع هولاءكو - قائد التتار في تلك الفترة - تودى بنا إلى الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى :

أن مضمون هذه الرسائل يكاد يكون دليلاً على خيانة فجأة من بعض علماء الدين الذين صاغوا النصوص بأسلوب لغوى بديع لا يستطيع أن يأتي به كثير من ناطقى العربية أنفسهم ، بما تشتمل عليه هذه النصوص من مفردات لغوية متقنة ومحسنات بديعية رائعة فضلاً عما اشتملت عليه من آيات قرآنية وأقوال مأثورة وأبيات شعرية منظومة مما يؤكد وجود فنة من أرباب القلم (أهل العمائم) في الطابور الخامس سخرت علمها في خيانة الدين والوطن .

الملاحظة الثانية :

أن أرباب الخيانة من الحكام ، والأمراء ، والوزراء كشفوا من خلال اتصالاتهم السرية وسفاراتهم المشبوهة عن حالة العجز والاستخذاء التي عليها الأنظمة الحاكمة في العراق وبلاد الشام مما شجع التتار على التعامل مع تلك الحكومات بنوع من الاستهانة والاستهزاء بتلك الأنظمة السياسية الهشة التي كانت عندهم أشبه بخيوط العنكبوت ومن ثم صيغت هذه الرسائل لكي يقرأها هؤلاء الحكام بأيدي مرتعشة ، وقلوب وجلة ، وعيون جاحظة ، وشفاه متدلّية من أثر الخنوع .

الملاحظة الثالثة :

أن التتار كانوا على علم بما حققه فرسان المماليك في معركة المنصورة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) من انتصار مذل على الصليبيين ومن ثم استشعروا صعوبة المواجهة معهم ، فلجأوا إلى الحرب النفسية والتي من بينها هذه الرسالة

التي أرسلها هولاء واشتملت على عبارات أكثر قسوة وفظاظة مما اشتملت على رسائلهم السابقة لحكام العراق وبلاد الشام مما يعكس حالة الجبن والذعر لدى التتار والتي حاولوا مداراتها بتلك الرسالة الفجة .

ولم تزل كتب الأدب الشعبي تعيش بين الناس في أنحاء العالم تروى لهم قصة الخيانة الحاكمة التي كانت سبباً رئيسياً فيما هم فيه من ذل وهوان وإن جاءت الروايات في إطار خيالي ساخر إلا أنها اتفقت في مضمونها مع ما نقرأه بين السطور في روايات المؤرخين وهو ما يمكن أن نطلق عليه " الجانب المسكوت عنه " وتتناوله أقلام المؤرخين بنوع من الاستحياء المشوب بالحدر ، بينما تتناوله الروايات الأدبية بنوع من الرمزية بحيث تترك العنان لخيال القارئ وتصوراته كي يفهم ما خلف الرمزيات من حقائق تاريخية .

فالخيانة التي مارسها الوزير العباسي ابن العلقمي أرجعت السيرة الشعبية سببها المباشر إلى نشوب خلاف بين ابن الخليفة وابن الوزير العلقمي بسبب لعب الحمام وتطيره فأمر الخليفة بذبح الحمام الذي كان في حوزة ابن الوزير (العلقمي) مما أغضب الوزير " الخائن " فاتصل بالتتار يدعوهم إلى غزو بغداد وإسقاط الخلافة .

والمصادر التاريخية أشارت إلى انغماس خلفاء بني العباس - زمن ظهور التتار في الشرق الإسلامي - في أمور اللهو والتسلية ومن بينها " رمى البندق والطيور " وتشير في نفس الوقت إلى مداراتهم للتتار ومكاتبتهم وإطماعهم في بلاد المسلمين مثلما كان الحال في زمن الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس (ت ٦٢٢هـ) وحتى زمن الخليفة المستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ) آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وكان " في لهوه لا يعبا بشئ " وهو الذي " أئلف عساكر بغداد لنهمه

فى جمع المال فدهى الإسلام وأهله بلىنه وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمى فبانه قطع أرزاق الأجناد واستجر التتار حتى كان ما كان " .

وهكذا يرى " القاص الشعبى " الخليفة العربى " أمير المساهر " الذى يتصاوى فى سلوكه وأفعاله ووسائل إشباع نزواته .

ويراه " المؤرخ الرسمى " خليفة بلا صلاحيات وليس له من الخلافة " سوى الاسم " وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة .

النصر على التتار ونهاية الخونة :

وقد سبقت الإشارة إلى رحيل هولاء إلى قراقوم بسبب وفاة منكوخان وانتخاب خاقان جديد بدلاً منه (قوبيلاي) مما استدعى تعيين قائد عسكرى اشتهر بشجاعته وقسوته وهو كتبغا الذى دخل بقواته غزة بفلسطين التى شاءت الأقدار أن تكون مرة أخرى ميدان تحرير الشرق العربى /الإسلامى من التتار الوثنيين بعد أن كانت ميدان التحرير من نير الفرنجة الصليبيين فى زمن صلاح الدين الأيوبرى (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) .

وكان قطز حريصاً فى مواجهته مع التتار فى عين جالوت (المنطقة الواقعة بين نابلس وبيسان) على تحييد القوات الصليبية فى عكا كى لا تكون شوكة فى ظهره أثناء القتال فضلاً عن أن هذا الحياذ سيؤمن له خطوط التموين والمواصلات .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن تفاصيل معركة عين جالوت وهزيمة التتار فى يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م والذى أسهبت المصادر المعاصرة فى الحديث عنها باعتبارها معركة حياة أو موت بالنسبة لكل المسلمين والعرب ولكن الحديث هنا يتحدد فى إطار نتائج هذه المعركة على الخونة والعملاء الذين باعوا

الدين والوطن لأعداء الإسلام والمسلمين وسائر البشر مقابل أن يظلوا على ما هم فيه من جاه وسلطان ورغد العيش .

فينكر المقریزی ما نصه :

" وكان هولاکو (فی بلاد فارس) لما قدم علیه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتباً وأختص به وأجلسه على كرسي قريباً منه وشرب معه حتى كتب له فرساناً وقلده مملکتی الشام ومصر وأخلع علیه وأعطاه خيولاً كثيرة وأموالاً وسيره إلى جهة الشام فأمر هولاکو لما ورد علیه خبر الكسرة (هزيمة التتار) برده فأحضر وقتل بجبال سلماص (فی أذربيجان) فی ثامن عشر شوال وقتل معه أخوه الملك الظاهر والملك الصالح ابن شيركوه وعدد من أولاد الملوك "

وعن نتائج الخيانة الحاكمة :

يقول أبو الفدا عند ذكره لهزيمة التتار وقتل كتبغا :

" وفي هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسون وستمئة ، كانت هزيمة التتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان على عين جالوت وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر المصرية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتار وسار من مصر بالعساكر المصرية وبصحبه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على ، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاکو على الشام ومقدم التتار سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من الشام من التتار وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز بن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا ، وتقارب

الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذته سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا .

وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ومضافاتها ، ... ، وأما الملك السعيد صاحب الصليبية فإنه أمسك أسيراً وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقه ، ... ، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد ينست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتار وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر " .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

• القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ، ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣١ م)
- الكامل في التاريخ " الجزء التاسع " (دار الفكر ، بيروت ، د.ت)
ابن أبيك الدوادار (أبو بكر عبد الله ، غير معروف)
- كنز الدرر وجامع الغرر " الجزء الثامن بعنوان الدرة النكية في أخبار الدولة التركية " نشر هاتسن روبرت - القاهرة
ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)
- الرحلة ، تحقيق طلال حرب (دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م)
ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزءاً في ١٦ مجلداً ج ١ - ج ١٢
تحقيق القسم الأنبي بدار الكتب (القاهرة ، د.ت)
ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)
- تاريخ ابن خلدون " العبر " الجزء الخامس ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧١ م)
ابن دانيال (شمس الدين محمد ، ت ٧١٠ هـ / ١٣٠٩ م)
- طيف الخيال - مخطوط مصور ميكروفيلم رقم ٢٦٥٥ أدب - دار الكتب القومية بالقاهرة .
ابن العديم الحلبي (كمال الدين عمر ، ت ٦٦٠ هـ)
- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، " جزءان " ، تحقيق سامي الدهان (دمشق ، ١٩٦٨)
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)
- مفرج الكروب في أخبار ابن أيوب ، تحقيق حسنين ربيع الجزءان ٤ ، ٥ ،
(الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ٧٢ - ١٩٧٧ م)
أبو شامة (أبو محمد عبد الرحمن ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)
- كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين (النورية والصلاحية) ، تحقيق إبراهيم الزريق
- مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٧ م
أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
- المختصر في أخبار البشر (الجزء الثالث) تحقيق محمد زينهم عزب ، يحيى سيد حسين
(دار المعارف ، القاهرة ، د.ت)
بيبرس الدوادار
- زبدة الفكر في تاريخ الهجرة الجزء ٩ ، تحقيق زبيدة محمد عطا (دار عين ، القاهرة ، د.ت)
- سيرة الظاهر بيبرس (طبعة عبد الحميد حنفي ، القاهرة ، د.ت) المجلد الأول - الجزء الأول
العيني (بدر الدين محمود ، ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين
(الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م)

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ / ١٤٠٨م)
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ جزءاً في ١٤ مجلداً (دار الكتب ، القاهرة ، د.ت)
المعجم الوسيط " جزءان في مجلد " (دار الكتب ، القاهرة ، د.ت)
المقريزي (تقى الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)
 - السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء في ١٢ أقساماً (اعتمدنا على الجزء الأول ، تحقيق د.محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٤م)
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)
 - معجم البلدان ٥ أجزاء في ٥ مجلدات (دار صادر ، بيروت ، د.ت)

ثانياً : المراجع العربية والأجنبية :

- إبراهيم أحمد العدوي
 - العرب والتتار (المكتبة الثقافية رقم ٨٨ ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٣م) .
أحمد عطية عبد الله
 - القاموس الإسلامي (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م)
سعيد عبد الفتاح عاشور
 - أضواء جديدة على الحروب الصليبية (المكتبة الثقافية رقم ١١٨ ، القاهرة ، ١٩٦٤م) .
 - الحركة الصليبية " الجزء الثاني " (مكتبة الأنجلو المصرية ، ج ٢١ ، القاهرة ، ١٩٧٦م)
عادل هلال
 - العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٦م)
علاء طه رزق
 - السجون والعقوبات في مصر - عصر سلاطين المماليك (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٢م)
فاسيلي بارنولد
 - تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم
 (الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)
فؤاد الصياد
 - المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان (دار العلم ، القاهرة ، ١٩٦٠م)
قاسم عبده قاسم
 - بين التاريخ والفلكلور (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٣م)
 - في تاريخ الأيوبيين والمماليك (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣م)

Claude Cahen :

The Mongols and the near east , in Setton (ed.)
A History of the Crusades vol. II, Wisconson,1969
,pp.710-732 (Setton) .

Grenard,F :

Gengis – Khan, paris 1935.

Hamilton Gibb:

The Ayyubids ,insetton (ed) A History of the Crusades vol.
II, Wisconson,1969 ,pp.693-713 (Setton) .

Howorth Sir Henry :

History of the Mongols , vol. I, London,1880 .

Joseph . R. strayer :

The Crusades louis IX, , in Setton (ed.) A History of the
Crusades vol. II, Wisconson,1969 ,pp.487-518 .

Runciman (S.):

A History of the Crusades Cambridge Univ, London,1957

Ziada (M) :

The Mamluk sultans, A History of the Crusades vol. II,
Wisconson,1969 ,pp.735-758. (Setton) .

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٣	أهداء
٥	مقدمة
١١	الفصل الأول : الصليب في زمن قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م) بين التوصيف الديني والتوظيف السياسي
٣٥	الفصل الثاني : الفكر العقيدي للإمبراطور جوليان بين الشك واليقين.
٦٢	الفصل الثالث : مرسوم الإملاء البابوي (١٠٧٥م) وخطبة مجمع كليرمون (١٠٩٥م) دعوة لحرب صليبية عالمية (قراءة في النص).
٩٩	الفصل الرابع : حتمي الوحدة بين مصر والشام في ضوء أحداث الحملة الصليبية/البيزنطية علي دمياط (٥٦٤-٥٦٥هـ/١١٦٩م).
١٢٩	الفصل الخامس : خصوصية مصر في النظرية السياسية لحكم خلفاء صلاح الدين الأيوبي في ضوء أحداث الحروب الصليبية (٥٨٩هـ/١١٩٣- ١٢٤٩م).
١٦٧	الفصل السادس : الخيانة الحاكمة زمن الغزو التتري للعراق والشام (قراءة في المصادر العربية)



السيرة الذاتية للمؤلف

ليسانس الآداب - قسم التاريخ - جيد جدا " أول الدفعة ".
تمهيدى الماجستير - تاريخ العصور الوسطى - جيد جدا.
ماجستير الآداب - تاريخ العصور الوسطى - ممتاز.
دكتوراه الآداب - تاريخ العصور الوسطى - م. الشرف الأولى.
تحت عنوان : السجون والعقوبات فى مصر " عصر سلاطين المماليك ".
المؤلف تتلمذ على يد العالم والمؤرخ المصرى الدكتور / قاسم عبده قاسم على مدى ثلاثين عاما.
المؤلف يعتنق نظرية " التاريخ علم المستقبل " إذ أن دراسة التاريخ بوصفة " علم الماضى " أو علم الأحداث يفقد علم التاريخ جدواه و يقصره على الجانب المعرفى " كان يا ما كان ".
المؤلف فصل من التعليم ثلاث مرات بسبب حرية الرأى واعتناقه لنظريات تمس عصمة كهنة العلم وطلاب السلطة الذين أفسدوا العملية التعليمية فى مصر.
المؤلف ضابط عامل خدم بالقوات المسلحة المصرية الباسلة من ١٩٧٣ - ١٩٨٨ م
المؤلف زميل الكلية الملكية بالملكة المتحدة " لندن " سنة ٢٠٠٠ م
المؤلف لم يتول أى منصب قيادى ، ولم يسع إلى الانتماء لأى حزب أو تنظيم لأنه يرى أن السلطان هو من ليس له سلطان.
المؤلف ما زال يبحث عن حقائق الأشياء فى عالم تسيطر عليه توافه الأشياء.

Bibliotheca Alexandrina



0938099

مكتبة نانسى - دمياط

المكتبة : ت ٢٤٠٨٥٥٣

المطبعة : ت ٢٤٠٨٥٥٤ المعرض : ت ٢٣٢٣٣٦٩